

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والخطبة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٦)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء التاسع عشر

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لأبي شامة

الجزء الثالث

دمشق ١٤١٦ / ١٩٩٥

فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل

الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعاة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكته ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وإن تمام حرمة بجرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولا أفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء إلى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتني لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لا بد

أن يكون لي بها ولد أعتمد عليه، وأسند ملكها إليه، ورحل إلى الزرقا،
ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب
بلادا عينها، ونواحي بمصر بينها وكان قد مال الملك العزيز إليه
لأشفاقه عليه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان
بمصر البلاد المعروفة بالشرقية، واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك
المصرية، ولما سمع تقي الدين هذا الخبر نبا ونفر، وذم الغير، واستبدل
من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر،
فعبّر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغرب ليتملكها، وكتب يسأل
السلطان أن لا يمنعه من سلوك مسلكها، وسمت همته إلى مملكة جديدة،
وأقاليم ذات ظلال مديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعة، وقد كان أحد
ممالكه المعروف بقراقوش، قد جمع من قبل الجيوش وسار إلى بلاد برقة
فملكها، وهزته الأمنية للنفائس من بلاد نفوسة فأدركها، وتجاوز إلى
إفريقية وهو يكتب أبدا إلى مالكة الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة
ويقول إن البلاد سائبة، فلما تجدد لتقي الدين ما تجدد، وتمهد لعمه
العادل ما تمهد، عاد له ذكر المغرب فعبّر بعسكره، ومالت إليه عساكر
مصر لبذله، وقدم مملوكه بوزبا في المقدمة، فلما انتهى إلى السلطان خبر
عزمه قال: لعمرى إن فتح المغرب مهم، ولكن فتح البيت المقدس أهم،
والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين،
واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا
فتحنا القدس والساحل طويينا إلى تلك الممالك المراحل، وعلم لحاج تقي
الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجهاز ولده
العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسار معه عمه العادل، فدخل
القاهرة في خامس شهر رمضان، وأما الملك الظاهر فسيره السلطان إلى
حلب وأنعم عليه بها، وبسائر قلاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب
شجاع الدين عيسى بن بلاشو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي
الدين في آخر شعبان، وتلقاه السلطان وخيم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورحب به ودخل دمشق، وعاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه مياfarقين، وجميع ما في ذلك الاقليم من المعقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله، فامثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملوكه زين الدين بوزبا فإنه رتب له عسكر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحب المغرب فأخذه مأسورا، ثم أغزاه مع الغز في ثغر من الثغور فالفاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتب الفاضل إلى تقي الدين: «سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التماس السفر إلى الغرب، والدستور إليه — يكفي الزمان فما لنا نستعجل — يامولانا ما هذا الواقع الذي وقع، وما هذا الغريم من الهم الذي ما اندفع، بالأمس ما كان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهب الله هذه النعمة، وقد كان الشمل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا والله ما انقطعت، يامولانا إلى أين وما الغاية وهل نحن في ضائقة من عيش، أو في قلة من عدد، أو في عدم من بلاد، أو في شكوى من عدم، كيف نختار على الله، وقد اختار لنا، وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا، وكيف نتتبع الجذب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعدل إلى حرب الاسلام المنهي عنها، ونحن في المدعو إليها من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقب الرأي وانظر في أواخره

فطالما اتهمت قدما أوائله

لا زال مولانا يمضي الآراء صائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولاخلت

منه دار إن خلت فهيئات أن تعمرو، ولاعدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يحب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: أعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممن يقول مالا يجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لأجيء، فقال: لا أسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنهج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها إليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشاره، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة

بالعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة، وصعد القلعة ضاحي نهاره، وفرح الناس به فرحا شديدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وأبل فضله.

وأما الملك العزيز والعاقل فإن السلطان قرر حالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول إلى الشام، فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك، فرأى الحق بعين البصيرة، وأجاب بالسمع والطاعة، وسلم البلاد، ورحل واصل إلى خدمة السلطان، فسار السلطان إلى لقائه، فلقاه بمرج الصفر، وفرح بوصوله فرحا شديدا، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة وسار إليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لا يعرفان إلا المولى والدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيت كركعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، فلا يقنع كل واحد منهما إلا طرف يملكه، وأقليم يتفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع، وجوده الذي مانظر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينس قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مروا القرابة أن يتزاورا ولايتجاورا»، وما على مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولا في أمر يبتة » وستبدي لك الأيام ماكنت عارفا، وفي غد ما ليس في اليوم، ولله اقدار، ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة
بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة: «
تناكحوا تناسلوا فإني مكاثركم الأمم»^(٣٤) طالما قال لهم المولى لدوا
وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشمس
والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية
جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتاً، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان
من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا
فقد تلفت منا قلوب وأنفس
ألم تعلموا أني من الشوق موسر
ألم تعلموا أني من الصبر مفلس
ظننتم بعيني أنها ألف الكرى
فهل بعثتم طيفكم يتجسس
وليس لقلبي في السرور تصرف
فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقظ طرفه
وتحسبه من سقم عينيه ينعس
له ناظر عند الخلاف ناظر
يقول دليل الدل عندي أقيس
إذا درست الحاظه السحر أصبحت
رسوم اصطباري درسا حين تدرس
ولم أنس أنسي بالحمى رعى الحمى
عشية لي مجنى ومجلى ومجلس
لحي الله أبناء الزمان فكلهم
صحيفته أودى بها المتلمس

ولولا ابتسامات المظفر بالندى
لما راق نفسي صبحه المتنفس
جلت شمس لقياء الحنادس بعدما
عرتنا وهل يبقى مع الشمس حنّس
وصار به هذا الزمان جميعه
نهاراً فما للناس ليل معسّس
إذا صال فالفلول ألف مدرع
وإن جاد فالمذول ألف مكيس
وليس بمغبون على فضل رأيه
ويغبن في الأموال منه ويخس
إذا أطلق الملك المظفر في الوغى
اعتته فالشمس بالنقع تحبس
فذاك ملوك لا يلبون داعياً
وكلهم عن دعوة الحق يخس
تشكى إليك الغرب جور ملوكه
فاشكيتّه والجور بالعدل يعكس
سيهدى إلى المهديّة النصر والهدى
بهديكم فيها وتونس تؤنس
رددت كراديس الفرنج وكلهم
لدى الأسر في غل الصغار مكردس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم
وأبيضكم من أسود القصر أشوس
أفاددم الأنجاس طهر سيوفكم
وما يستفاد الطهر لولا التنجس
شموس ظبي تغدو لها الهام سجدا
فلله نصرانيّة تتمجّس
وكم كفى الاسلام سوءاً بملككم
كفيتم على رغم المعادين كل سو

- ٨٤٧٩ -

ولا يفتح البيت المقدس غيركم
وبيتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم في جهاد مثلث
إذا نصرُوا التوحيد فيء خمس
إذا ماتقي الدين صال تساقطت
لأقدامه من عصبة الشرك رؤس
وماعمر لا شبيهه سميّه
شديد على الأعداء ثبت عمرس

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولا إحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، وما يتحرك لنا نسيم ولا سرح الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيم وغيا سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا: يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا السرايب، فأهل رجب وما جرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم لذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحر في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن
علي بن المعلم الهريثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة
تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:
قل لأبي الفضل قول معترف

مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا
ولابد كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا
أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والأصم
طرلاب خير من صفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي
أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ليس
للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحليل
بواق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا
ب التماذي وزالت السريب
فليطلل المدعون ما وضعوا
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج
فقد بان الخفاء
إنما التقويم والزيج
يـجـ هـواء وهباء

قلت للسبعة ابراً
م ومنع وعطاء
ومتى ينزلن في المـ
يزان يستوي الهواء
وتثير الرمل حتى
يمتلئ منه الفضاء
ويعم الأرض خسف
وخراب وبلاء
ويصير القاع كالعـ
سف وكالطود العراء
وحكمتهم فأبى الحاـ
كم إلا ما يشاء
ما أتى الشرع ولا
جاءت بهذا الأنبياء
فبقيتهم ضحكة تـ
حك منهم العلماء
حسبكم خزياء عارا
ما تقول الشعراء
ثم ما أطمعكم إلى الـ
حكم إلا الأمراء
ليت إذ لم يحسنوا في الـ
دين ظناً وما أساءوا
فعلى اصطرب لابل بطـ
ليموس والزيج العفاء
وعليه الخزي ما
جاءت على الأرض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال توفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبد الجبار النحوي، وكان آية في النحو ثقة عالما صالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنة جاء نعي أتابك محمد بن أتابك إيلدكز المعروف بالبهلوان، وهو الذي كان نزل على خلاط في العام الماضي، وكانت حياته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعده تلك الممالك، واختربت أصفهان وإلى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت الحرب أوزارها، وتولى بعده أخوه قزل أرسلان، فأزال مهابة الملك السلجوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب، فأتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قال: واشتغل السلطان في بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصيد والقنص والانتهاز فيه لبوادر الفرص، وكان يركب إلى تل راهط للصيد بالبزاة والشواهين مع مماليكه الخواص الميامين، وله شاهين يجري كأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجاز وعد صيده عرقوبا، فطلبت من السلطان، فقال: أنت للقلم والدواوين، فمالك والبزاة والشواهين؟ فقلت: يكون في ملكي وكل ما يقنصه يأمر لي به المولى، وهذا أربح لي وأنفع وأولى، فقال: نعم، فلما أصبح سير لي سبع عشرة قطعة من طير وحجل، وقال: هذا صيد شاهينك في طلق واحد على عجل، فملكك ذلك الشاهين خمس ست سنين والسلطان يصطاد به ولي قنصه، وله مطلع، فما زال لي على هذا الحق محافظا، وهذه النكتة ملاحظا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلك المنائح، فيالله دره من سلطان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعاد مزحها جدا، واعتده لي حقامعدا، فدون حقه على مثله أن يؤسف، ومن حقنا بعده أن نتلوا (يا أسفي على يوسف) (٣٥).

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعه، ومالها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لا يستطيع تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعماثم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فنبدا بأهل الدين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلal والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلت: أنا أضمنهم، ولا يحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياح العماثم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الراوندان، وقد سلمها إلى علم الدين سليمان، ثم مضى إلى خدمة السلطان.

قال ابن القادسي: وقدم الحاج في عاشر صفر، فأخبروا أن سيف الاسلام أخا صلاح الدين ملك مكة وضرب الدنانير فيها باسم أخيه، ومنع من قولهم حي على خير العمل، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن رجا هبت بالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصل الخبر إلى بغداد بقتل البهلوان، وأن القتال وقع هناك، واحترقت المحال، ونهبت الأموال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقي الأمر على ذلك من سابع محرم إلى ربيع الآخر، فاحصوا من القتلى أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة بعد أن احترق أطفال في اليهود بالليل، وقام قزل أخو البهلوان، فكف الناس. وكان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها، ومعه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصلب، وصادرهم وأشير على قزل بأن يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار، فقال له الشحنة: أهل البلد فقراء، فقال بعض المصالحه لقزل: مانأخذ إلا من الأغنياء، فوثب عيار فقتل المصلحي، وكان العيار متعلقا على قاضي البلد، فوكل الشحنة بدار القاضي، فجاء ابن الخجندي إلى دار القاضي فحسن له إخراج الموكلين به وتحالفا على إخراج الشحنة من البلد، وأن يقطعوا خطبة السلطان الذي نصب قزل، ففعل ذلك في سابع شوال، ثم كثر القتل في البلد فكل من في قلبه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحاب ابن الخجندي، وكان الحريق والنهب واحراق الدور في أصحاب القاضي، وجرى القتال يوم عرفة، ويوم العيد ودام، وبطل الناس من المعاش، وخربت الأسواق ووقع الغلاء، ومات الناس

- ٨٤٨٦ -

من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخوف، وأخذت ثياب الناس
فلا يتجاسر أحد أن يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يأخذون أموال الناس
مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى من أسباب نصره الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه، فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثم أنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوجته وفوضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص،^(٣٦) فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطاعة طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه بما استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يدارونه، وآونة يمارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه في كل حق وباطل، فبلي منهم أهل الساحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهو ابن الملك أماري ابن فلك، وهو مري الذي تقدم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين، سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكان ابرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبحثها وأنقضها للموائق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحتثها، ومعه شذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكنا في كل سنة نغزوه، وبالبوائق

نعروه، ويصبيه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملاً، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلاً، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشد، فأرسلنا إليه وذمنا فعالة، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه: «كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفساً يستمتع أهل الإسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصره الإسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

ثم دخلت

سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة

للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ما جملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعراب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ما كان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والخواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمرا من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظار السلطان، فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي، فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية، وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في حشدتهم فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدم الإسمتار، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين، فكانت هذه باكورة البركات، ومقدمة مابعتها من ميامن الحركات، وجاءتنا البشرية، ونحن في نواحي الكرك والشنوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيم بعشتر، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضا وطولا، وملا بالملأ حزونا وسهولا، ومارأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر، ولا أكرث للكفر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض، وما شاهدته إلا من تلا: (ولله جنود السموات والأرض) (٣٧).

وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج في ليل العجاج مدلج، ولما تم العرض، حسم الفرض، وسالت بأفلاك السماء والأرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطالبا، وحزبه أحزابا، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر

الأقحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببخيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وإن الإيوان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا، وانتخوا و دخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية، ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والراجل والرامي والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقاليم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصاء، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفاً أويزيدون، ويكيدون مايكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لايريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميه، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا ومانبضوا، وقعدوا ومانهضوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايرحون، ومن قرب صفورية لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويديموا على عزم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصه العسسية على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحيثئذ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمرها، وأخذ النقابون في النقب في برج فهدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيتها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لا تعود بعد اليوم ولا بد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فيما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء من غيرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا ما نريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولا عن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتظمة وأفواجها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر . خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها) (٣٨) وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) (٣٩) وبتنا والجنة معروضة، والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقائه والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملاً جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعمئة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنّت القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، وماللقيظ منهم غيظ، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولاؤلئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورد، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا ما في أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شههم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعددهم من الله بنصره المألوف، ويغري المثين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبت في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاد جلدته وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبته، والنصر على تليته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصر،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأبت عثرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجج عليهم استعارها، وتوهج أوارها فبلوا وهم أهل التليث، من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء، والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا، وهم ظمأى وما لهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية، وأصممتهم وأعجزوا وأزعجوا، وأخرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا أو شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبههم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبي، وفرشتهم على الربي، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطراب الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الحملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومالانوا، وثبتوا على ماكانوا واستقبلوا واستقتلوا واستحلوا وحلوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء، فحطوا خيامهم على غارب حطين، حين رأونا بهم محيطين، فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام، ثم استحر الحرب، واستمر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنجة من حواليتهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل وجرفهم السيف جرف السيل، وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم، ولما شاهدوا الصليب سلبا، ورقب الردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنوا بالضرب الدراك، فما برحوا يؤسرون ويقتلون، ويحمدون ويحملون، وللوثوب يخفون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون، ووصلنا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفري، وأوك صاحب جليل، وهنفري، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها، ومن الإستتارية معظمها ومن البارونية من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده، وجبر الاسلام بكسرهم، وقتلوا وأسروا بأسرهم، فمن شاهد القتل قال: ماهناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ماهناك قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشفي للمسلمين كيوم حطين غليل، فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ماأعجز عنه الملوك وهده من التوفيق لامثال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوک، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك، وخصه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبر، واليمن الأسر، والنجاح الأدر، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السمو والسوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمه، ولعاقده النصر وقواعده مبرمة محكمة.

ومن عجائب هذه الواقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم مادام

فرسه سبالما لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفاء، ماهو سالم، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتدلتنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصر يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلا الملاء بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الجبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر ببتنها، وعبرت بها فالفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعانيت أعيانهم خيرا من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس باثرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلة المفاقر، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الأناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاء، مقلصة الشفاه، مخلصه الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا أربا تلوت قول الله تعالى: (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) (٤٠).

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وما ألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت السنة الأمم عن حصره وعده، وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهناك العتاة عناة، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، ومملك مملوك، وهاتك مهتوك، وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا انصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف، وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولاهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبدلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم، ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيمًا، والموقف المنصور كريما، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صح الكسر، وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب

السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق، وتوافت إليه حماة الحقائق، ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشار بها وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجانبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تمادي السكارى، فقدم بداية مقدم الداوية، وعدة كثيرة منهم ومن الإستارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل وهنفرى والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه، فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجانبه، وقرعه على صدره، وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض؟ فقال الترجمان عنه: إنه يقول: قد جرت بذلك عادة الملوك، وماسلكت غير السنن المسلوك، وكان الملك يلهث ظمأ، ويميل من سكرة الرعب منتشياً، فأنسه السلطان وحاوره، وفثاً سورة الوجل الذي ساوره، وسكن رعبه وأمن قلبه، وأمر له بهاء مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول الملك الإبرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه، فقال السلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذناً، فلا يوجب ذلك له مني أمناً، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامه وبيارقته، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه، فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، ثم جمع الأسارى

المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم إلى أصحابه فتسلمتهم الأيدي، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلاهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وخيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيتها بشروط الأيمان، فخرجت بهاها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بهاها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلّت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد، وتناصف الجولان، وما يقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طبق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإستارية، وقال: أنا أظهر الأرض من هذين الجنسيتين النجسين، فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفر، فتقدم بإحضار كل أسير داوي واستتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به، وأنه يضمن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطائهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجرأ استدأه بدم أجراه، وبراً عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنصري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبي وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإستارية، فامتلأ الأمر في إرهابهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لا يفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل ماله من المفترض، وأنت لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهداً، وأنت إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشتر، وركب يوماً في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي

المراحل، ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل، فبدأ ببقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك، ولا تحط غير قمع أهل الكفر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك من تلك السقطة، إلا ليوفر حظك من هذه الغبطة، فتوكل على الله عازماً، وجاز الأردن جازماً، وأرعب جأش الكفر وكسر جيوشه، وثل عروشها، ووقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، وأما القومص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره، ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر، وفجأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ما ذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهما، وهو مطول فيهما، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببت إيرادها على وجهه لما فيه من شرح ما تقدم وتقويته، وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ما ذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على مافي طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وما كان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنجة بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرتة، فوصل تقى الدين حلب، ونزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهممل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشرا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشرا، فلقاهم السلطان

وأكرمهم، ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسييل، ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض عكا فقصد نحوهم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة وجه العدو، ونازل طبرية وزحف عليها، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها، فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الفرنج، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة ما لم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم إلا الله، وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ما قدره، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)^(٤١)، وكان القمص ذكي القوم

والمعهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طناب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرحهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقدمو الاستتارية والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال : ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم بخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الذي تسقيه، وإلا أنا ماسقيته، وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء من أسره أمن، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً ثم عاد استحضرتهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه على ما قال، وقال: ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل، ثم سل النمجة وضربه بها فحل كتفه، وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك في أنه يشني به، فاستحضره وطيب قلبه، وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حده فجري ماجري، وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكر محمد بن القادسي في تاريخه أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الواقعة، منها كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسي يقول فيه: « كتبت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » وفيه: « ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإننا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنت أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كبرت، وما أدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا الله تعالى لآمن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار، فعرض جنده ورتبهم وجعل تقي الدين في الميمنة ومظفر الدين في الميسرة، وكان هو في القلب، وجعل بقية العسكر في الجناحين، ثم ساروا على مراتبهم

حتى نزلوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكفر سبت فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكفار، وكان عسكر الكفار على صفورية، فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية، فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا، فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقبهم، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمي، فاقتلع المسلمون منه فوارس، وقتلوا خيالة ورجالة، فانهزوا المشركون إلى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام، وأقام الناس حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبت الرياح فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلت منهم إلا نحو من مائتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً، وقيل ثلاثة وعشرين ألفاً، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً، وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي وغلان الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلة من طريق مصر، ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ماسمع بها قط، وهذه ذكر بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحد يصف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الذي يبشر به المسلمون: «إن مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الأفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفاً، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفاً، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين ديناراً، وأخذ صليب الصليبوت فعلق على قنطارية منكسأ، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر: «وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجاً إلى نعل فباعه بها، فقليل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وما أحسن ما قال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبي
من المجد معنى كان من قبل يغمض
وما كاد جيش الروم يبرم كيده
إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حيث تغور المسلمين فأصبحت
تغور بأمواله الحديد تمضمض

أسرت ملوك الكفر حتى تركته
ومافيه عرق عن قوى النفس ينبض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: «ليهن المولى إن الله قد أقام به الدين القيم، وإنه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع، لم تمسح من خدودها، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه الواحد، جدد الله شكرا تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه، وجزا يوسف خيرا عن إخراجه من سجنه، والماليك ينتظرون أمر المولى، فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية:» تلك المكارم لأقربان من لبن» وذلك الفتح لآيمان واليمن، وذلك السيف لاسيف ابن ذي يزن، وللأسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعهد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها مايتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يايوم حطين والأبطال عابسة
وبالعجاجة وجه الشمس قد عسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا
معفرا خده والأنف قد تعس
ياظهر سيف برى رأس البرنس فقد
أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه
كأنه ضفدع في الماء قد غطسا

ما زال يعطس مزكوما بغدرته
والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا
عري ظباه من الأغمار مهركة
دما من الشرك ردإهابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس
من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا
وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبت على الأردن ردا من القنا
ردنية ملدا وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن
معاركها للجرد ضرسا ولادهسا
غداة أسود الحرب تعتقل القنا
أساود تبغي من نحور العدا نهسا
أتوا شكس الأخلاق خشنا فلينت حـ
سدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
طردتهم في الملتقى وعكستهم
مجيدا بحكم العزم طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رؤوسهم
ودأبك في الإحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم إذ صبح عزمك فيهم
ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم
دمارا كما بست جبالهم بسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض ان تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضي فراشهم
صلا لا فزادت من خمودهم قبسا
وقد خشعت أصوات أبطالها فها
يعي السمع إلا من صليل الظبي همسا
تقاد بداء الماء الدماء ملوكهم
أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها
وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكايسارأس البرنس الذي به
تندى حسام حاسم ذلك اليسا
حسادمه ماض الغرار لغدره
وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله مما أهدى يدا فتكت به
وأطهر سيفاً معدماً رجسه النجسا
نسفت به رأس البرنس بضربة
فأشبهه رأسي رأسه العهن والبرسا
تبوغ في أوداجه دم بغيه
فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوها
أمامهم أرناطها ذلك الجبسا
ولله نص النصر جاء لنصله
فلاقونسا أبقي لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداوي صل بضربة
طيرير الشبا عوداً بمضربا به حسا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل
وأنت وهبت الغانمين به الخمسا

وقد طاب ريانا على طبرية
في أطيبها ريانا وحسنها مرسى

وللشهاب فتیان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح
الدين رحمه الله:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر
فهناك لم ير غير نجم مقبل
في أثر عفريت رجيم مدبر
فمن الذي من جيشهم لم يخترم
ومن الذي من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت
بالسبي بالثمن الأخس الأحر
سقت الممالك الكرام ملوكهم
كأسابه سقت اللثيم الهنفر
وعجمت عود صليهم فكسرت
وسواك ألفاه صليب المكسر
أغلى الأداة من أسرت وأرخصت
بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها
بك فهداع دعوة المستنصر
لا يعد منك المسلمون فكم يدا
أوليتهم معروفا لم تنكر
آمنت سربهم وصننت حريمهم
ودرأت عنهم قاصبات الأظهر
مما أن رآك الله إلا آمرا
فيهم بمعروف ومنكر منكرا

متواضعاً لله جل جلاله
وببك اضمحلست سطوة المتكبر
لم يخل سمع من هناء مهنىء
للمسلمين ومــــن سماع مبشر
واستعظم الأخبار عنك معاشر
فاستصغروا ما استعظموا بالخبر
مضت الملوك ولم تنل عشر الذي
أوتيته من منجح أو مفخر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبرية :

جلت عز ماتك الفتوح المبينا
فقد قرت عيون المؤمنين
رددت أخيلة الاسـلام لما
غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما
يعزز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذي ملك رياء
وأنت تقاتل الأعداء ديننا
غدت في وجنة الأيام خالا
وفي جيد العلاء ثميننا
في الله كم سرت قلوبنا
ويا لله كم أبكت عيوننا
ومما طبرية إلهـدي
ترفع عن أكف الـلامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء
وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا
يصد الليث أن يلج العرينا

لقد أنكحتها صمم العوالي
فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الأرض طرا
سواك ومعقل أعيى القرونا
قست حتى رأت كفؤا فلانت
وغاية كل قاس ان يلينا
قضيت فريضة الاسلام منها
وصدقت الأمانى والظنوننا
تهز معاطف القدس ابتهاجا
وترضى عنك مكة والحجوننا
فلو أن الجهاد يطيق نطقنا
لنأدتك أدخلوها آميننا
جعلت صباح أهلها ظلاما
وأبدلتك الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء
لموضون الحديد مقنعينا
ليضك في جماجمهم غناء
لذيذ علم الطير الحنينا

تميل إلى المثقفة العوالي
فهل أمست رماحاً أم غصوننا
يكاد النقع يذلهما فلولا
بروق القضا ضبات لما دهينا
فكم حازت قدود قناك منها
قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجاذر أنسات
كغيد نذاك ابكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى
بنان تفضح الغيث الهتوننا

أعدت بها الليالي وهي بيض
وقد كانت بها الأيام جونا
فليس بعماد مرعى خصيبا
أخو سغب ولا ماء معيننا
فلا عدم الشأم وساكنوه
ظبي تشفي بها الداء الدفينا
سهاد جفونها في كل فتح
سهاد يمنح الغمض الجفونا
فاللم بالسوا حل فهي صور
إليك وألحق الهام المتوننا
فقلب القدس سرور ولولا
سطاك لكان مكتئبا حزيننا
أدرت على الفرنج وقد تلاقى
جموعهم عليك رحي طحونا
ففي بيسان ذاقوا منك بؤسا
وفي صفد أتوك مصفديننا
لقد جاءتهم الأحداث جمعا
كأن صروفها كانت كميننا
وخانهم الزمان ولا ملام
فلسيت بمبغض زمنا خوونا
لقد جردت عزمانا صريا
يحدث عن سنه طور سينا
فكنت كيوسف الصديق حقا
له موت الكواكب ساجديننا
لقد أتعبت من طلب المعالي
وحاول أن يسوس المسلميننا
وأن تـك آخر أوكلاك ذم
فإن محمداً في الآخر يننا

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصاري رجل يقال له يوسف، وحدثت الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدث بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الواقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئري من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والددة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى.

فصل

في فتح عكا وغيرها

وهي بالألف الممدودة، ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرية، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لويية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشينا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقدر كالسراج، ومابرج مع السلطان ماثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيت في ذلك اليوم للسلطان مسائرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنبت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحت أعلام عكا، وكأن يبارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدتهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولا غرارا، ولا وجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميت رفته، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبدلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ما صدقوا من الخوف المزعج، والفرق المخرج، كيف يتركون دورهم بها فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمان نهاها، فطاب لأولئك نهاها، وجعل السلطان للفقيه عيسى الهكاري كل ماكان للداوية من منازل وضياع ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع، واستخرجوا الدفائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكذلك ممالك الملك الأفضل وأصحابه، وولاته ونوابه نبشوا المحارز، وفتشوا المراكز، واستباحوا الإهراء واجتاحوا الأشياء، وكان السلطان قد فوض عكا وضياعها ومعقلها وقلاعها إلى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماذ أنواع ما استولوا عليه من الأموال، ثم قال: ومن جملة ذلك أنهم احتاطوا بغير علمي على دار باسمي، فباعوا منها متاعا بسبعمائة دينار، وأخلوها مما كان فيها آلات وأذخار، وقلدوني المنة في تحصيل تلك الدار، فإنها كانت من أنفس العقار، وسلموها إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوها بما قيمته سبعون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الدخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنموه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح: وخلي سكان البلد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركوها لمن أخذها، ونبذوا ماحووه لمن حواها ومانبذها، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو ذخرت تلك الحواصل، وحصلت تلك الذخائر، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجح المقاصد، فرتعت في خضرائها، بل في صفرائها وبيضائها سروح الأطماع، وطال لمستحلبها ومستحيلها الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيدة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة، يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالأخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ما حصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيسة العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمة، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين: «صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسلموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطناها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٤٢) وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالتهم، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومن جملة البشائر بكسرة حطين: «ولما أحيط بالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السيف (لاعاصم اليوم)»^(٤٣) واستولى الخذلان عليهم بأسرهم، وبردت أيدي المؤمنين بحر قتلهم وأسرههم، ولم يبق لهم باقية، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يطأ من يصل إلى مخيمنا إلا على رممهم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولا بد أن ندركه فهو مطلوب، وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الإبرنس صاحب الكرك الغدار، كافر الكفار، ونشيدة النار، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعاً، وسرنا إلى عكا وهي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركز دائرة كفرهم، ومجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلمناها بالأمان، والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث، وعباد الله الصالحون قد وصلت إليهم بوعده الله الصادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لا تتأخر، والههم بعد هذا الفتح السنّي على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده)»^(٤٤).

فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا

وطبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بها فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبي خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغللمان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجنين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدوم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشמוש والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولا يغيرون لهم شرعا ولا شعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لا يرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين ففرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ما وجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملئ بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذ الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبد لهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولا يؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالا يحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسنا
ما طبت نفسا ولا استحسنتم بعدكم
شيئا أنفسيا ولا استعذبتم لي نفسا
قلبي وصبري وغمضي والشباب وما
الفتن من نشاطي كله خلصا

وكيف يصبح أو يمسي محبكم
 وشوقكم يتولاه صباح مسا
 عادت معاهدكم بالجزع دارسة
 وإن معهدكم في القلب مادرسا
 وكنت أحدس منكم كل داهية
 ومادهانا من الهجران ما حدسا
 لما هدت نار شوقي ضيف طيفكم
 قرينه بالكري زار مقتبسا
 ورمت تأنيسه حتى وهبت له
 إنسان عيني أفديته فما أنسا
 أنا الخيال نحو لاف الخيال إذا
 ما زارني كيف يلقي من به التبسا
 لهفي على زمن قضيته طربا
 إذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
 عسى يعود شبابي ناضرا ومتى
 أرجو نضارة عود للشباب عسا
 وسادن يفرس الأساد ناضره
 فديته شادن الأسد مفترسا
 في العطف لين وفي أخلاقه شوس
 يالين عطفه جنب خلقه الشوسا

ومنها في المديح:

إن بان لبس مضيئنا لاجئين إلى الـ
 مفتى الحسام بن لاجين بنا بلسا
 يميست أعداءه بأسا وناثله
 يحيي رجاء الذي من نجحه أيسا
 بمزق المازق المنسوج عشيره
 وقد محاليوم ليل النقع فانطمسا

لازلت مستويا فوق الحصان وفي
حصن الحفاظ ومن عاداك متكسا

وهي طويلة وقد تقدمت منها أبيات في وصف كسرة حطين، وسيأتي
منها أيضا أبيات عند فتح القدس في مدح السلطان صلاح الدين رحمه
الله.

ومن كتاب عن السلطان إلى سيف الاسلام أخيه: « كاتبنا أخانا
العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب، فلما بشر بكسر
الفرنج وفتح عكا وطبرية، كان قد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار
الداروم، وأجفلت قدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحها عنوة، ثم حصر
مجدل يابا، فطلبت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعد
وهي:

طبرية. عكا. الزيب. معليا. اسكندرونة. تبين. هونين. الناصرة.
الطور. صفورية. الفولة. جينين. زرعين. دبورية. عفريل. بيسان.
سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يافا. أرسوف. قيسارية.
حيفا. صرفند. صيدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يابا. جبل
الجليل. مجدل حباب. الداروم. غزة. عسقلان. تل الصافية. التل الأحمر.
الأطرون. بيت جبريل. جبل الخليل. بيت لحم. لد. الرملة. قرتيا.
القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكر ما تخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية
مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها أعمال
وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: ومما أنشأته من شرح الفتوح وكتبت به إلى الديوان

وبدأت بقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾^(٤٥) الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهون الأمر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا، وخطوب الدين بقوله: (ولقد مننا عليك مرة أخرى)^(٤٦) فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة، فهو قد أصبح حرا، ريان الكبد الحرا، والزمان كهيئته استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد رد ما كان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جديدا حبله، مبيضا نصره، مخضرا نصله، متسعا فضله، مجتعا شمله، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، ما يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نازل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان، ورفعت بها أعلام الإيمان، وهي أم البلاد، وأخت إرم ذات العماد، وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصليبوت مأسور، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الاسلام، قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقيبتها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً، وأما فرسان الداوية والاستتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعقل التي فتحت هي: طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيسارية. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

فصل

في فتح تبنين وصيدا وبירות وجبيل وغيرها ومجيء المركيس

إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقةا، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدها، وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها، ووصلنا في يومين إلى صيدا إلى منهل فتحها صادين، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين، ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر، فصرفنا الأعنة إلى صرفند، وهي مدينة لطيفة على الساحل، مورودة المناهل، ذات بساتين وأشجار ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثم سار في يومه على سمت بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد فأملى كتاب صلح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قال: وسلمت بيروت بحضوري، فكان من سبب ابلالي سروري بفتحها وحسوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلاً بهم إلى صور النهج، وعاد الاسلام الغريب فيها إلى وطنه، وتوطن الدين بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل له فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابض في أمره، وباح إليه بسر، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنية على فتح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوها ولا تفقدوني، فقد قامت قيامتي، فأبى الصفي حاله، واستصوب ماقاله، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيده، فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وربح نجاته وغنم، ومضى إليها من تولاه، وانسل منها صاحبها وسلاها، وتبعها فتح بيروت وتلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وأوى إلى طرابلس وثواها فما متع بها ملك وكان كما قيل: «راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان إبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشينى بالمينا، ثم تعجب وقال: ما نرى أحدا من أهلها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقده، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع

فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال: خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجىء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخطط يده، ولأنزل

إلا بعهدده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد
الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما
وقع، وصار في صور فرم الأمور وجراً الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان
بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي
ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير،
ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من
تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى
يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة
بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلات وكانت خالية، وانتاشت
وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل
بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة،
وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من
كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد
الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

فصل

فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولا متحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتها من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وما شك المركيس أنه محصور محصور، فلما أرخى من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقب فحسر النقب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولا تخطروا غيري ببالكم فياني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملية، وتبنين، وبيت لحم، والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية: غزة والنطرون، وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية، وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة، كما أخذ موثيقه.

كذا قال العماد في كتاب الفتح، وقال في كتاب البرق: وما برح السلطان مقبلاً بظاهر عسقلان حتى تسلم المعقل المجاورة لها، والبلاد المتخللة فيما بينها، فذكر الداروم، وغزة والرملية وتبنين، وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابن شداد: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعني ناحية بيروت رأى قصد عسقلان، ولم ير الإشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل، وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضرسوا من القتال، ومن ملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور — يسر الله فتحها — كل فرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة: كالرملية، وتبنين، والداروم. فأقام عليها المنجنقات وقاتلها قتالاً شديداً، وتسلمها سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبه السلطان إلى بعض أهله وفيه: «انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس، وعسقلان ففتحنا قلاعها

وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلما لتمام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جليل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال: «وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف واسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر: «ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد».

قال: «ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمر المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد
الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ
الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج
تزاحم أفواجاً، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها،
لؤلؤ مقدمها ومقدمها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب،
ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في
جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجدد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضاً أمره إلى الله، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام: «من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم ما من الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببیت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

- ٨٥٣٧ -

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً، وكان رحيله عنه يوم الجمعة
الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصراً مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمة ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدادها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، وإطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الإيوان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفر عنه بأيمان الإيوان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعباً واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكان به من مقدمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيثان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشأن، والذين أعظمتهم حيطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتارية و البارونية من ذوي الكفر والشنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحيت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضافت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركاً للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرّج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: ها هنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجترأ الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصيح ندامتنا،
وتسبح علامتنا، وتسبح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وباكرامها
كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها
استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمنا لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب
والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى
والمرقب، والمشرى والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى
والمربع، والمرخم والمخرم، والمحلل والمحرم، والصور والاشكال، والانظار
والأمثال، والأشياء والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها
صور الحوارين في حوارهم، والأخبار في أخبارهم والراهبين في
صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخیالها،
ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت
والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم، وصورة الكباش
والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح،
وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام
الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج
الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ونخضت البتول بالمولود،
وأضافوا إلى متعبدتهم من هذه الضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج
الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا
نفوت، وعننا ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع
ولاننازل، ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا
ما استخلصنا منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتناهوا، وما انتهوا بل تناهوا،
ونصبوا المجانيق على الأسوار، وسترنا بظلمات الستائر وجوه الأنوار،
واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم،
وأصلت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم
قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى
السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق

حفرأ عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كل طارق بالردى للرد طريقا، وأعادوا كل نهج واسع بما وعروه وعوروه به مضيقا، وتحمل كل منهم ما لم يكن له من قبل مطيقا، وخرج جماعة منهم على سبيل اليزك فأدجلوا ليلا، واعترضوا عدة من أصحابنا غارة، على طريق السلامة ماره، وكان قد شد من المقدمة المنصورة أمير تقدم، وما تحرز، ولا تحزم، وما ظن أن قدامه من له جراءة الإقدام، ومن يعتقد أن ربح كفره خسارة الاسلام، وهو الأمير جمال الدين شروين حسن الزراري، فوقعوا عليه في موضع يعرف بالقبيبات، فاستشهد رحمه الله، ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغمه ثم أقبل باقبال سلطانه وأبطال شجعانه، وإقيال أولاده، وأخوانه، وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقة الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى، وقال إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا، وأي يد له عندنا إذا أيدنا، وإنه مكث في أيدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القرون عنه متخليه، وخلت الفرنج به متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بالقبول القلوب، كيف لايتم بفتح البيت الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كالتاج، وفيه ومضى البارق، ومضى البراق، وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير في الآفاق، ومن أبوابه باب الرحمة، الذي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول إلى الخلود، وفيه كرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الخوض المورود، وهو أول القبلتين، وثاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعتقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة، فقال عز من قائل: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) (٤٧) وله فضائل ومناقب لا تحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب) (٤٨) ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان » وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزائنه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله: (الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ما وثق على استعادة آلائه موثيقه وألاياه، وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصرة.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نزل السلطان على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين، ودون القمامة تقوم القيامة، وبحب سلامتها تقلى السلامة، وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسم على حصاره أهل الجلد، وأبصر في شماليه أرضاً راضيها للحصار، متسعة المجال للاسراع والابصار، وممكنة للدنو منه للنقب إن صار من حيز الانصار، فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمام جموعهم المحسورة المحشورة، ويرزون ويبارزون، ويطاعنسون ويحاجزون، والمطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائم ينهلون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) (٤٩) ومن استشهد مبارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجزا الأمير عز الدين عيسى ابن مالك كان أبوه صاحب قلعة جعبر، فانه حاز لشهادته في المحشر المفخر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكوثر، وكان في كل يوم يفرس فوارس، ويلقى ببشر وجهه وجوه المنون العوابس، فاغتم المسلمون من صرعته، وهان عليهم اتلاف المهج بعد اتلاف مهجته، فركبوا أكتاف الرهج، حتى وصلوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفرقوه، والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه وأحرقوه، وصدقوا وعد الله في القتال لأعدائه وصدقوه، ولما عضت بهم الحرب، وقع السور واتسع النقب، فصعب عليهم الهين وهان لنا الصعب، وعقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا

مايينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلا الإستئمان ، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتلهم، وتدميرهم واستئصالهم، وقال: لا آخذ القدس إلا كما أخذه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير سنة، فأنا أفني رجالهم قتلا، وأحوي نساءهم سبيا، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه ، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لا أمن لكم ولاأمان، وماهوانا إلا أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلا وأسرا، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تأمينهم إلا الإباء ، فتعرضوا للتضرع وخوفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلم ولاسلامه، ولا نعمة ولاكرامة، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النار، ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولايجرح منا واحد حتى يجرح غيره، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبة، ونترك عليكم في سبينا السبه، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسره، وقبة الصخرة نرميها، وعين سلوان نغميها، والمصانع نخسفها ، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ماين غني وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأما الأموال فإننا نعطيها ولانعطيها، وإما الذراري فإننا نسارع إلى اعدامها ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولا يقبل لكم سعي، ولايسلم عمر ولاعمار، ولانضار ولانضاره، ولانساء ولاصبيان، ولاجماد ولاحيوان، فأى فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبة جاءت من بعد رجاء النجح، ولا يصلح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقبل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم، ونعمم لصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة رؤوسهم ورؤوسهم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعاودات ومفاوضات

وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوما عما لزمه أو امتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو: عن كل رجل عشرة دنائير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغيرة أو صغير ديناران، الذكر والأنثى فيهما سيان، ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدمو الداوية والاسبتار في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغم والغصب لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير، ومقدم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الواجحين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه، لكن تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفيا في الرحال، ومنهم من غيرت لبسته، فخرج مخفيا بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعاة مطاعة لم تقابل بالرد، والنقاب الأكابر استنابوا أصاغرا، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الدين كوكبري أن منهم جماعة من أرمن الرها، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادّعى بما لعدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك العادل استخراجهم، وقوّم على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سباحة

الابتهاج، وما فينا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصب،
وكان السلطان قد رتب عدة دواوين في كل ديوان منها عدة من النواب
المصريين، وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطأ بالأداء
انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالبواب من الأمناء
والوكلاء، فذكر لي من لأشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان
ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطأ لمن نقده في كيسهم، وتلبس أمر
تلبسهم، فكانوا شركاء بيت المال لأمناءه، وخانوه على ما حصل لكل
من الغنى والنفع وما أضر غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب
مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق إزار ينتظر انقضاء المدة
المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعه المطلوبة، وكانت بالقدس ملكة
رومية متعبدة مترهبة في عبادة الصليب متصلبه، وعلى مصابها متلهبة،
وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها
منحدرة تحذر القطرات من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياء
وأتباع، فاستعازت بالسلطان فأعازها، ومن عليها وعلى كل من معها
بالافراج، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها
من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهره ونفائسها وكرائم خزائنها،
فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، واسقاطها وأعدالها،
والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن
كانت من سجنها قرحى، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى،
وهى ابنة الملك امارى، وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من
الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الامام بزوجه، وكان بقيده مقيما في
برج نابلس، موكلاً به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن
تبعها، وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهي
ابنة فليب وزوجة الابرنس الذي سفك دمه يوم حطين، وهي صاحبة
الكرك والشوبك، وهي بنواها محوطة وبرأيا منوطه، فجاءت سائلة في
ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحصنها سمح لها بابنها، ثم

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعازل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدّها باطلاقه إذا تسلّم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدمات وشروط لم يمكن استيفائها، وكان الأقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخناء، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، ولللقاء الأكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهاج إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي: (شرع لكم من الدين ما وصى) ^(٥٠) وهنتي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العباد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صباحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدمي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها. ويشرقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار وهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) (٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصر الامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وائتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاده من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عز يومه ماحياً ذل أمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس، وعبد الصليب، ومستقبلي الشمس، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين، فكأن الله شرف هذه الأمة وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)^(٥٢) وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الانصار وأظهر الاعوان، واخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول: هو الله أحد، وأعان الله بانزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً، وعبد الله في البيت المقدس سراً وجهراً، وملكت بلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجداً وبراً وبحراً، وملئت اسلاماً وكانت قد ملئت كفرًا، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرًا، والحمد لله شكراً، حمداً يجدد للاسلام كل يوم نصراً، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشراً، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وانه لابد من تطهير الأرض المقدسة برجس دمائهم، وقتل رجالهم وسبي ذرائعهم ونسائهم، ولما أيسوا من النجاة، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة، خوفاً بقتل الأساري المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مال وبناء بهدم واحراق واتلاف، وعرف ان جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع، وبذلوا اطلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفداء ومازالوا يبتهلون ويضرعون، ويذلون ويخشعون، حتى استقر الأمر أنهم يفادون، وأجبيت الصخرة المقدسة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة اليها في مناخها، وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفديت بنواظر أهل

الايان، وصوفحت للوفاء بعهدا المجدد بالايان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلي اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبذل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلا صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامعها منسوحة».

ومن كتاب آخر: «فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن ثمنه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمن الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرت عين الراني».

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجهاجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنّت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكننا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهرأ، واغتصب من الاسلام قهرأ، وارقد كفرأ، وامتدت به الأيام عمرأ فعمراً، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكايه اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتح به بنا اظهارأ لفضل هذه الأيام، واثيرأ لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصره، ومكنا من قلبها— وإن كان من الحجر— المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذل البطرك، وأقصى من المسجد الأقصى الساجد إلى الشمس، وتجلي الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه وإشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سنأه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان، ويبدلون الأذعان، حتى يسلموا المكان، فقليل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم

وأبيتهم، فروّعوا بقتل أسارى المسلمين، وهم ألوف، وعرفنا انهم لا يقصرون في الشرّ فإن جهلهم معروف، فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشترى به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبسهم، وسلموا القدس، فأعدناه إلى القدس، وطهرناه من الرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه، وطال في يد الكفر أسره وسجنه، واستهل بغرّ أيماننا مزنه، وأنار يمنه. وعاد باحساننا حسنه، وزال بنا خوفه وزاد أمنه، وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجوناً وبرجس الشرك مشحوناً، حتى أعاد الله بنا رونقه، وأذهب قلقه، وأعدم فرقه.

وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم له نظير، وأفق الدين به منيف منير، وشرف أيماننا به كثير، وهو إمام فتوحنا المدخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير.

فتح البيت المقدس الذي لم يخطر تمنييه بخاطر الملوك، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالاسوار، وغارت الصخور للصخرة المباركة فجذّت في انقاذها من الاسار، وهتمت ثنايا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاینوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامت المنجنيقات على عصابته حد الرجم، وواقعت ثنايا شرفاته

باهتم، وتطأيرت الصخور في نصره الصخرة المباركة، وحجرت على حكم
السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب
الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدسة الصخور، وطارت من أوكار
المجانيق كأنها الصقور، فما أسر البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر،
واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وانقاذ الصخرة المباركة من
قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوه، والخافها من البهاء والرونق والعز
الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من
أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاة المؤمنين
وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول
الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله
عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصي منه الساجد
للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل
الناقوس بالأذان، بل الكفر بالايان، وصلى محراب الاسلام في المحراب
الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم،
وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به مآتم
الكفر وعرس الاسلام، وعادها المسجد الأقصى إلى مدانة المسجد
الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق
الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا،
فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد
إلى مأمنه، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعته، وعلا سنا
السنة، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة،
وخرج البطارقة والقسيسون من مساجد الاثمة، وعادت الكنائس
مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايمان باشرة، ووجوه أهل

- ٨٥٥٤ -

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد
أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في
محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى
بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الأصعب».

فصل

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخرا بدمشق لعارض مرض من الله بشفائه فمن جملة ماكتب السلطان إليه: «أما الفتح فمن جملة بركات همته، وآثار جذبات عزمته، فإن الله تعالى سهل ما سجل أهل الدهر بانه صعب، واهب نسيم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنا بهذه الفضيلة بصالحي السلف، وقد بذل الكفر بالايان، والناقوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحراب، ورفع الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفاضل الفائق غزارة الأمواه، وقبلت بالشفاه وبوشرت بالأفواه، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه، والحمد لله، ثم الحمد لله، وما كان يعوزنا ويعوزه إلا حضور المجلس السامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بروائه، ولا للانس لقاء إلا بأنس لقاءه، وكاد يتصحف الفتح لولا صالح دعائه، وحسن آلائه، والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصة، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية، والحمد لله على هذه النعمة السنية، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خصوص الري به وعمومه، وما حظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما أنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه، ونسأل الله أن يكمل صحته، وينعش قوته، ويقوّي نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومن كتاب آخر: «نصرنا الله بملائكته المسومين، وأوليائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهب ومنقبة لا يبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدا للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى (باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التلث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركناً، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدنا للذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضرة، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايان، وجددت بعهدا صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمد لله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن: «فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجذبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربيع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمنى استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواده، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاده، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجلت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيها لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر: «البيت المقدس صار مقدساً، وأصبح للاسلام معرّساً، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيوان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقة حتى صلت في محارب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوا المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلاً بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنازل، بعد أن كان للمقصرين المصلين ناراً داراً، وتسلم محارب الاسلام محرابه، وأصبح لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب».

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لإقامة الخطبة الإمامية، ورفع مافع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم ما بني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجماعات، وإدامة أورد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسىء عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار، وإعلاء ما كان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى، ومناخ التعريس، وقد أقصي عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع الاسلام فيه شملاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بالسنة عذبتها) نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبوية بتجديد عهودها، وشهد مقام المعراج وموطىء براقه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: «تخلص ظل الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمه، وادلجت السيوف والآجال نائمة، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا انهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقب السور: «فأخلي السور من السيارة، والحرب من النظاره، وأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، واسمع الصخرة الشريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض».

ثم قال: واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الائمة من توفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطرن، والكواكب منها للطرب ينتثرن، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس، وكان التثليث يقعدها، وجهرت اللسنة بالله أكبر وكان سحر

الكفر يقعدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر، وخفق علماه في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يجارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسنة ربما سلقته فانضح قلوبها بالاكتماء والاقتصار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطراً، ومن رام صفقة رائجة جاسراً، ومن سما لأن يجلي غمرة غامراً.

ووصف فيه يوم حطين فقال: «وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الضلال صارخاً وكان الاسلام مولوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يحرضهم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلامه خشاشهم، ويقاثلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقاً ينبون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلا القمص، وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، وملياً يوم الخذلان بالاحتياال فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف، ثم أخذه الله بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، وكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغاً للبيضاء صنعا الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

فصل

قال العماد ومن قصائدي التي هُنت بها السلطان بفتح القدس وهو
مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحشي أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهدكم
وقد كررت من درس آثارها درسا
وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزلزل الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى
حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى
أما لكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا
وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذسرت عنكم ما سمعت له حسا
وإن نهاري صار ليلا بعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمساً
بكيّت على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
فلا تحبسوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنانرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي ليالينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدس
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبيتها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا
وكم لبني أيوب عبد كعتر
فإن ذكروا بالباس لا يذكروا عبسا
وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيها مغنى ويا حسنهما مرسى

وعكا وما عكا فقد كان فتحها
لأجل أنهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلهما
بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف وبينى وغزة
تخذت بها بين الطلى والطبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
فمنظره بل أمره أربى وأرجسا
وصار بصور عصابة يرقبونكم
فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقي واجتث أصلهم
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولاتنس شرك الشرق غربك مرويا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرج فاقصد بلادهم
بعزمك وأملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم
وقد طردت عنه ذئابها الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعهد أيضا من
جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:
قل للمليك صلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذالجب
وابعث إلى ليل انطاكية العسسا

وأخل ساحل هذا الشام أجمعه
من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منه نفسا ولا نفسا
فإنهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى
تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:
أبشر بفتح أمير المؤمنين أتى
وصيته في جميع الأرض جواب
ما كان يخطر في بال تصوّره
واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه الملوك الأقدمون وقد
مضت على الناس من بلواه أحقاب
وجاء عصره والأيام مقبلة
فكان فيه لفيض الكفر انضاب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه
إيجازه ببليغ القول اسهاب
قرع الظبي بالظبي في الحرب يطربه
لاقينة صنع باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه
لقد تجلى الهدى والشرك منجباب
بفتح القدس لاسلام قد فتحت
في قمع طاغية الاشرار أبواب
ففي موافقه البيت المقدس للـ
بيت الحرام لناتيه وإعجاب
والصخر والحجر المثلثوم جانبه
كلاهما لا عتار الخلق محراب

نفسى من القدس صلبانا كما نفيت
من بيت مكة أزالام وأنصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان. عند فتح القدس، وقد ذكر العباد من
ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم ما اخترته منها هنا،
وزدت عليه ما لم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم
ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها
أبا المظفر أنت المجتبى لهدى
أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلوراك وقد حزت العلى عمر
في قلة التل قضى كنه عبرته
ولوراك وأهل القدس في ولته
أبو عبيدة فدى من مسرته
غداة جزوا النواصي في قمامته
وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على
عهد الصحابة في استمرار مرتته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه
الملك المظفر سام في مبرته
وفي السلالة عثمان يؤيده
علاء على ايشار نصرته
وكم لديدك ذو وقربى رقوا شرفا
وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتخ (٥٣) ما بين البزاة لقي
ملك الفرنج أخى ذابن عترته
أما رأيت معالي يوسف بسقت
حتى رمت كل ذي ملك بحسوته

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرتيه
واستقبح الرجس ممنواً بمشهديه
فاستفتح القدس محشواً بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
'بوقعة التل' واستشراء سورته
يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيماً مثل بكرته
يافاتح المسجد الأقصى على بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا السدين ملحمة
تحكي النبوة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور،
الوزير العزيز، قصيدة ، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر
الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها
وسياقي الباقي المختار أيضاً:

الوقت أضيق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف
الجدّ في هذا الزمان مبین
والهزل فيه مع الغواية مخفف
بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والوائق السـ
منصور والمستظهر البر الوفي
شدّت قوى أركان ملّة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملك إذا أم الملوك جنابه
لاذوباً كرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى إلى أبوابه
وقفوا بأعظم من يصول وأراف
مولى غدا للدين أكرم والد
حذب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه
أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم
وأقام في الأنجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لأنه
يروى أحاديث العوالي الرعف
ملك له في الحرب بحر تفقه
وله غداة السلم زهد تصوف
وعليه أنزل في الجهاد مفصل
فلذاك يقرأه بسبعة أحرف
عزم وحلم انسيما كان من
عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا أيها الملك الذي لطباعه
وسيوفه خلق ارضى وتعسف
لله يوم عروبة إذا عربت
ساعاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة
ذهبت بمهجة كل عالج ألقف
آفاتهم وافقت بأخذك منهم
يا فافكم من حسرة وتأسف
أومارأى الأعلاج حين دعوتها
بلسان سيف في الكريهة ملحف

لم تستطع عصيان أمرك بل أتت
منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن بأختها
وكذلك حتى الأربعين ونيف
ماللسوا حل غير بحرك حافظ
بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الأخضر استفتحت
فزهى بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأقمت
وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل
من عامل وبمشرف من مشرف
وبجهبذ العزم الذي لا يثنى
وبنظار السراي الذي لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها
واستأد فرضي جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة
وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثارها
وصدورها بل عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاض حقل موقنا
أن الإله به تؤمله حفي
هم فتية الاتراك كل مجفجف
يغشى الكرية فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة
لا ينظرون إليه من طرف خفي
إن صبحوا الأعداء في أوطانهم
تركوا ديارهم كقاع صفصف

أنت اصطفتهم لنصرة ديننا
لله در المصطفى والمصطفى

قلت: وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة
لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال:
قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة
ثلاث وسبعين وخمسمائة، نال: رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً
على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:
ملك الصياصي والصواصي ناصر
للدين بعد إياسه أن ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما
يطوى الطراز له ويقتل قيصر

قلت: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال: وجدت على حاشية كتاب يروى
عن خطيب كان بالرقعة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة
احدى وثلاثين وخمسمائة، فذكر البيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين
سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة، والمعنى بالطراز الأخضر بلاد
الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا
وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك
سوى صور بين صيدا وعكا، وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه فتح
هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي
قتله بيده لأنه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة
الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم
بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم
له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منها:

جنـد السـاء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما
له سوى الشكر بالأفعال أثان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيداً وما ضفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملك شاه طرابلس
فخام منها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ
لام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ
إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم
بأمر من هو للمعوان معوان
لناصر أذخرت هذي الفتوح وما
سمت لها هم الاملاك مذكانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا
ل الناس داود هـذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وأخوته
بل أين والدهم بل أين مروان

وعدّ عما سواه فالفرنجية لم
ييدهم من ملوك الارض انسان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما
ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يقيك لاسلام تحرسه
من أن يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة
فالكفر في سنة والنصر يقظان
يا جامعاً كلمة الايمان قانع من
معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي
المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أترى مناماً بعينى أبصر
القدس يفتح والفرنجية تكسر
وقيامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر
ومليكههم في القيود مصفود ولم
ير قبل ذلك لهم ملك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فتح الشام وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به
يختال والدين بابه تتبخر
نثر ونظم طعنه وضرا به
فالرمح ينظم والمهند يتشر
حيث الرقاب خواضع حيث العيون
خواضع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلي بسنابك
تحدى نعالاً أودمساء تهدر
وصوافنا تختار إن تطأ الثرى
فيصدها عنه طلي وسنور
تمشي على جثث العدا عرجا ولا
عرج بها لكنهما تتعثر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فابشر فان رقاب العدا
تمد إلى سيفك الباتر

وكم لك من فتحة فيهم
حكمت فتحة الأسد الخادر
وكسرت صليبه من عنوة
فلا لله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأضيت جـدك في غزوهـم
فتعسا لجدهم لعائن
وأدبر ملكهم بالشام
وولى كاسهم الدابر

جنودك بالعرب منصوره
فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غرق هالك
بتيار عسكرك الزاخر
ثارت لدين الهدى في العدا
فأثر الله من ثائر
وقمت بنصر الهـ الـورى
فسماك باللك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً
فلا الله أجرك من صابر

تبيت الملوك على فرشهم
وترفل في الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجهاد
على طيب عيشهم الناصر
وتسهر ليلك في حق من
سيرضيك في جفك الساهر
فتحت المقدس من أرضه
فعامت إلى وصفها الطاهر

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخرا لله هذا الفتور
ح من الزمن الاول الغابر
وخصك من بعد فاروقه
بها لاصطناعك في الآخر
محبتكم أقيمت في النفوس
بذكر لكم في الوري طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
لمثلك من مثل سائر

وباقى القصيدة تقلم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن
علي بن محمد الساعاتي:

أعيان قد غايتهم الآية العظمى
لآية حال تذخروا النشروا النظما
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسفل الصما
حبامكة الحسنى وثى يشرب
وأطرب ذياك الضريح وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أباد واؤه
غير الحسام العضب لا يحسن الحسا
وأصبح ثغر الدين جلالا ناسما
وأسننة الاغما دتوسعه لثما

سلوا الساحل بالخشي عن سطواته
فما كان إلا ساحلا صادف اليها

وله من قصيدة أخرى في السلطان:
عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقين طردا لا تخاف أناتاه
هو منقذ البيت المقدس بعدما
طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وإنما
عند الزحاف تحركت سكناته
أشتت الأعداء هي جحافل
عن شمل دين جمعت اشتاته
أوتيت عزم في الحروب مسددا
لازيغ به بخشي ولا هفواته
أحسنت بالبيت العتيق ويشرب
ولك الفعال كثيرة حسناته
هذه سيوفك برمات دونه
لبكائهن تبسمت حجراته

له فيه من قصيدة أخرى:
هو الفاتح البيت المقدس بعدما
تحاته سادات الدنيا ومسودها
فضيلة فتح كان ناني خليفة
من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة في بعض أارب السلطان:
الست من القوم الأولى بسيوفهم
نوا صخرة البيت المقدس مسجدا

وللعباد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقدس أعضل داؤه من قبلكم
فوفيتهم بشفاء ذلك المعضل
درج الملوك على تمنني فتحه
زمننا وغلتهم به لم تبل
وأتى زمانكم فأمكن آخر
ما قد تعذر في الزمان الأول
ما كان قط ولا يكون كفتحكم
للقدر في الماضي ولا المستقبل
أوجدتم منه الذي عدم الوري
وفعلتم في الفتح ما لم يفعل
أيدي الملوك تقاصرت عن مفخر
طلتكم به فلبوا البعض الأنمل
أحييتهم شرع الكرام ولم يزل
نصر المحق بكم وقهر المبطل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكم لبني صلاح الدين فينا
على الاسلام من حق تأكيد
وإن لهم على الأملاك طمرا
بفتح القدس فضلا ليس يحدد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هم الملوك ذوو بأس ومكرمة
إن سالموا أمنوا أو حاربوا خيفوا
أغناهم القدس عن قول الوري فتحت
عكا وصيدا وبيروت وأرسوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من
جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير
الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله
ملك به وأبيه يفتخر العلاء

ويفوق فخرهما السها والفرقدا
ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا
أو ان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالأسد الهصور إذا عدا
أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال لمثله عمر الردى
بل مالك الدنيا ومال عرجها
خيلا ورجلا ناصري الهدى
ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوك الصيادلة هم إذا
رفع السراق راكعين وسجدا
وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمين المرء
من بعد ما درست معالم سبله
دهراؤه رحرهمها أن يقصدا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء، ولم يكن السلطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد : لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغياً، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً واسعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّمه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأبنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ما أحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلى التنزيل، وحق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، واثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس، وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القراء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاولاد، وعبد الواحد،

ووحيد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر، وأمل الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحديث الرواة، وروى المحدثون وتحنف الهداة، وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معنى شائقاً، ووشى لفظاً رائقاً، وسوى كلاماً بالموضع لائقاً، وروى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض علي خطبته، وطلب مني نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإتهاء بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، ومامنهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولا يبين، ولا ينخص ولا ينص، ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى، وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلاً الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لركة القلوب المدامع، وراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون، وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الذي فيه انتعش الإسلام وانتاش، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة،
والعصبة الطاهرة، والامة الظاهرة، وما أكرم هذه النصره الناصرية،
والاسرة الإمامية، والدولة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة
الصلاحية، وهل في بلد الإسلام أشرف من هذه الجماعة التي شرفها الله
بالتوفيق لهذه الطاعة، وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب،
وتفاوضوا في التفويض، وتحذثوا بالتصريح والتعريض، والأعلام تعلی،
والمنبر يكسى ويجلی، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج
تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضجيج مافي عرفات للحجيج،
حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وحيعل الداعي، وأعجل الساعي،
فنصب السلطان الخطيب بنصبه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز
إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بأن
يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقيين بتقديمه عرقى، فأعرتة من عندي
أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة،
فرقى العود، ولقي السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطراف
المعشر، وخطب وانصتوا، ونطق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب،
وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خطبتيه وخطب بموعظتيه
وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول
تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراص ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا
للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل
والإحسان)^(٥١) ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من
أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما
قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع، واطرد
القياس، وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير، فجلس
عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فذكر من خاف ومن رجا ومن
سعد ومن شقى، ومن هلك ومن نجا، وخوف بذي الحجة ذوي الحجا،
وجلا بنور عظاته من ظلم الشبهات مادجا، وأتى بكل عظة للراقيدين

موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون وعج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكروب، وتصاعدت النعرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبون وأتاب المتحوبون، وصاح التوابون، وناح الأوابون، وجرت حالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت، وضراعات قبلت، وفرص من الولاية الالهية انتهزت، وحصص من العناية الربانية أحرزت، وصلى السلطان في قبة الصخرة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة، ثم رتب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصيبته.

قلت: هذه الفاظ العباد في هذا الفصل من كتاب الفتح، وذكره في كتاب البرق بعبارة أخرى، تشتمل على فوائد زائدة، وفي تكرار ماتقدم أيضاً بغير تلك العبارة فائدة، فإنها معان جليلة، كلما ذكرت جلت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الأقصى ببسط العراص، وإخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأذناس، وكنس ما في أرجائها من الأنجاس، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداوية بنوا غريبه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال، وجانباً هرياً للغلال، فأمر في العاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض ما اعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتحاة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقلاً، حتى إذا حيل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة، بادية على أساريه أسرار سروره بالأسرة، وامتلات تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وأن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلست القلوب وخشعت الأصوات، وحسنت الظنون، وعين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد وأحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلال المسامع، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ما افتض به ابيكار الاستعارات بأبدع البراعات، وأبرع العبارات، وصدق بالصدق، ونطق بالحق، وفاز بالسبق، وحاز على فضلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضخم خطيب، له بنشر المعالي أضخم طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأين سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتة من نباته، ولو عاشا لافتقرا إلى فقره واحتقرا أعراضهما عند جوهرة، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبه ورفع، وامتلاً صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرمت سرائر الزلفى إلى الله والقربة، ثم رتب السلطان بعده خطيباً يستمر إقامته للجمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات، ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نصب سرير للوعظ أبقي تلك الأمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق وأشهد وأشهق، وخلب بعباراته الحلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارتته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانتته، والظفر وإبانته، والصخرة وإصراخها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، واللجنة وجناها لهذه الأمة، وما أعده الله لهذه الطائفة، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته ما لا يبلغ إليه نطق اللسان الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ودلائله، والنجح ووسائله، والشرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً وسوماً رابحاً.

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بأفشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)^(٥٥) الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)^(٥٦) (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)^(٥٧) (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)^(٥٨) الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)^(٥٩) (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)^(٦٠) (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض)^(٦١) و) (الحمد لله فاطر السموات والأرض)^(٦٢)

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والأمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمدته على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى. وعرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدره المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدره ما يغشى. مازاغ البصر وما طغى) (٦٣) صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيوان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منزل الشوك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، ولما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه (٦٤) وإمالة الشوك عن طرقة، بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) (٦٥) وقال: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) (٦٦) وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الوطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي

لايجاريكم فيها مجار، ولايجاريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش
ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات
الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيش العثمانية. والفتكات العلوية.
جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيرية
والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء .
وتقبل منكم ما تقربتكم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار
السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى
بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم
لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت
بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّ به عينا الأنبياء
 والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح
عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة
من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء
أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في
كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده
ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية.
أليس هو البيت الذي عظمتة الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه
الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي
أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين
خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن
يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلاً وغضب عليهم لأجله فألقاهم
في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه
بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان
قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم
بها أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهويتكم جنده. وشركم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات. وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم. وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم. واحذروا من اتباع الهوى. وموافقة الردى. ورجوع القهقري. والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة ما بقي من الغصة. وجاهدوا في الله حق جهاده. وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباد. وإياكم أن يستزلكم الشيطان. وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم إن هذا النصر بسيوفكم الحداد. وبخيولكم الجياد. وبجلادكم في مواطن الجلال. لا والله (ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) ^(٦٧). واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل. والمنح الجزيل. وخصكم بهذا الفتح المبين. وأعلق أيديكم بحبله المتين. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه. وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) ^(٦٨) (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) ^(٦٩) والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشركم. جدوا في حسم الداء. وقطع شافة الأعداء. وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله. وأقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله. فقد نادت الأيام: بالثارات الإسلامية والملة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر. وغلب الله وقهر، أذل الله من كفر. واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها. وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرها. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول. وهم مثلكم أو يزيدون. فكيف وقد أضحى في

قبالة الواحد منهم منكم عشرون. وقد قال الله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)^(٧٠) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)^(٧١).

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك، وسيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذات عن حرمك الممانع، السيد الأجل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبا المظفر يوسف بن أبوب، محيي دولة أمير المؤمنين، اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك برآياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاهه، اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للآياد حوزته، وانشر في المغرب والمشرق دعوته. اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون، وابتلي المؤمنون. فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقتها ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه وأنفذه في المشرق والمغرب أمره ونهيه، اللهم أصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وأثب سرايا جنوده في سبل الأقطار، اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم. اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدى
الذي لا ينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: (رب أوزعني أن
أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً
ترضاه)^(٧٢) (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)^(٧٣) ثم ماجرت العادة
به

فصل في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسبه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسبه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فلذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ما أمره به وامتلأ، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير، وكان من حديث أحداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في روعه من النور الفاضل من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاختريني، من ضيعة تعرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعتة قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهنـدم والنحت المهندس، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل، و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيئات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيـمان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فـلـسـر هذه الامة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه

ملاً^(٧٤) ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين ماثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، وهو من الأولياء الأبرار والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب، ويزيده قوة عزمه جداً، ويمدّه بحياء الحياة الربانية مداً، وقد طهره الله من العيب، وأطلعته على سر الغيب، ونزّهه من الريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركته، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه، وهو الذي سن الفتح وسنى النجح، واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق فاحتجج إلى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر، وحسن المنظر وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله، وضح به في محراب الأقصى تفريق شمله، وظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتاب البرق : وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، وتعبد النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين، وابدعوا في تركيبه الأحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه ألوفاً، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفاً في صوان الحفظ مقروباً، حتى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه القدسي، فعرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم : (والله يحب المحسنين).^(٧٥)

قلت : وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك ، و كان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدو بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبياً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه، ثم يحتمل أن يكون رحمه الله وقف على ما ذكره أبو الحكم بن برجان الأندلسي في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها ، و عمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه فهياً أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقريباً إلى الله تعالى بما يديه من طاعته ويخفيه ، وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف وإنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير، قال: وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولا هو من قبيل

- ٨٥٩٣ -

الكرامات، أيضاً فإن الكرامة لاكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تاريخ،
ولذلك لم يوافق الصواب لما أدار الحساب على القراءة الأخرى الشاذة
التي هي بفتح الغين من (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنه قال في سورة
القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولا مطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومخط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسييح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبذلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ، وحسّر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين، وحببت بالقبل، وفديت بالمثل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقلية، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانّت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام. في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب
حزوزاً، وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شراً مرموزاً، فإن الفرنج
نقلوا منها إلى بلادهم قطعاً، وأبدعوا فيها بدعاً حتى قيل إنها بيعت
بوزنها ذهباً، وأفضى الأمر بها أن يكون حجرها منتهباً، فغطاها بعض
ملوكهم إشفاقاً عليها لثلاث تمتد يد ضمير إليها، فأبقت حزوزها في
القلوب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات،
وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبايك من حديد،
وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتح: ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف
عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى
مصاحف وختمات، وربعات معظمت، لاتزال بين أيدي الزائرين على
كرسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت
المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين، فما
أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان
الخشوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع،
فهناك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لا يؤبه له،
لو أقسم على الله لأبره، وهناك كمل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو
بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان
ويبطله ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار،
وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمس أنوارها،
وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال : وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة،
وفما يجمع لهم وذ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن
وفعل ما أمكن، وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العادل أبو بكر بكل صنع
بكر، وتقي الدين عمر بكل ماعم وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة،

ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرغد مال، فانتهاز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر أن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نور جلي، وكرم ملي، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة، وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بها أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً وافية، وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عما يصل من المدد.

قال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حصن. عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً، ومؤذنين وقواماً، وهو مشابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد، وانجاح المقاصد، واصفاء الموارد للقاصد والوارد، وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان يتباهيا فيها الأنام، وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقياء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطريرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما أدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون* وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)^(٧٦)، فباعوا ماتها لهم على البيع إخراجهم رخيصة، وأبقوا ما لم يجدوا من تركه محيصاً، وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكة، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكة، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدتهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطررك منه عاطلاً، وتركه طلالاً مائلاً، فقلت للسلطان: هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم؟ فقال: هم ما يعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمانه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ما عليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريعة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفي ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر ألفاً واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على مذكرناه كثير، وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعمجوا، ويؤمنوا ولا يخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامة، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف فشمروا وعمروا وعرّشوا وغرّسوا، فلهم منها مجان وقطوف، وكانت لأمرأى الفرنج ومقدّمهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، ورحضنا أوضارها.

وقال في الفتح: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرّم على النصارى زيارتها ولا إمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا: إذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، وانحسرت عن قصدها مواد اطباع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهدمها، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال: وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل مال للكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ما جمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عدله على بذله، واستكثروا ما أفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها، وقيل له: لو أدخرت هذا المال للآل، فقال: أمني قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياديته، يقول : إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللهكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول
ماولى الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله
سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت
منها في التباشير:

لتظفرنّ به لم يحوه ملكك
أبالمظفر حظا خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت
بالخزم والعزم لم يخص بها الأول

وفيها
قد ساد اسكندر أهل الزمان معا
في سنّ عشرين وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها
طوعا له وملوك الأرض والملل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:
أبالمظفر فاهنا حظ متخب
أخرى الزمان لدين كاد يتبر
زهدت فيما سبى الأملاك منك درا
علما بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال: ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها
في التباشير:

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها
بني أصفر بالرافعات اللهازم
فتسبي فلسطينا وتجيبي جزائرا
وتملك من يونان أرض الأساحم
وتعنوا لها الأملاك شرقا ومغربا
بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

قال: وبعثت إليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة
هنأته فيها بالعافية منها:

فيا ملكا لم يبق للدين غيره
وهت عمدا لاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك في الشام طائر
فقص جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فعم العداردى
فإنهم يا جوج أفرغ بهار دما
إذا صفرت من آل الأصفر ساحة الـ
مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى وهمتك العلى
وعزمتك القصوى ورميتك الصمى
فما هو إلا أن تهم وقد أتت
فتوح كما فاض الخضم الذي طما
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة
فمن ذا الذي يقوى لبنينا هدمما
وما كل حين تمكن المرء فرصة
ولا كل حال أمكنت تقتضي غنما
وليس كفتح القدس منية قادر
وما أن تلقاها سوى يوسف جزما

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل الاصفر ذاحين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم
من غيرتيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم
عنها وإلا عدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا
ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قد تم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
غاراته الروم والصقلا ب واللان
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ويرهب القول بالثالث رهبان
ولا بن أيوب في الأفرنج ملحمة
دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك الأرض من ملك
كانه ملك في الخلق حنان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:
في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الاحداث يعتبر
مالي أرى ملك الأفرنج في قفص
أين القواضب والعسالة السمر

والاستبار إلى الداوية التأموا
كأنهم سدياً جوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عجباً بسيرتها
وفي المقادير ما تسلي به السير
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا
تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا
كمدين أم لقوا رجفاً بكفروا
حطوا بحطين ملكاً كافياً عجباً
في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترساً
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان مواعده
ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملك الأبرنس في دمه
فمات حياً وحيى وهو يعتذر
رأى ملكاً ملوك الأرض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدات بهر الأعيان هيئته
يختفي وهو في الأذهان مشتهر

تقدم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علامن قبلنا صدوروا

أما رأيتهم فتوح القادسية في
أكناف لوبية تجلى وذا عمر
والحق يعرس والطغيان منتحب
والكفر يطمس والايان مزدهر
هذا المليك الذي بشرى النبي به
في فتنة البغي لاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفت
له الرواة بما لم ينمسه اثر
أعين اسكندر بالخضر وهوله
عون من الله يستغني به الخضر
وصنع ذي العرش ابداع بلا سبب
فلا تقل كيف هذا الحادث الخطر
بين اسباياه تجلى في دمشق إذا
ملك الفرنج مع الاتراك محتجر
ازاءه زعماء السachsen معاً
مصفيدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق متكساً
وحوله كل قسيس له زبر
ونحن في هذا وذا طير صحيفته
بفتح عكا التي سدت بالثغر
تغزو أساطيلنا منها صقلية
فتذعر الروم والصقلاب والخزر
من ذا يقول لعل القدس منفتح
إليك بل سفر يعقوب له السفر
أبو المظفر ينويها فخذ سفنا
من باب عكا الى طرطوس تنتشر

يسبي فرنجة من أقطارها وله
مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدب
وبعضهم رومة الكبرى له وطر
برايعة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقول له الأجسام لا وزر
قالوا أطلت مديحافيه قلت كما
بدأت فالصب للمحبوب مذكر

وأما القصائد التي له فمنها التائية له، وقد تقدم ذكرها، ومنها
القدسية الكبرى عددها مائة واثان وخمسون بيتا أولها
تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى
وبسطه أمر أعربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب
وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كجبال أبرمت لأسارنا
فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا
فبعناهم بالرخص جهرا على الندا
وجروا جيوشا كالسيول على الصوا
فاضت غشاء في البطاح ممددا
وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا
إذا الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا
فأودع سجننا وسط جلق مؤصدا
وأقسم أن يسقي بدجلة خيله
فما ورد الأردن إلا مصفدا

فكم واثق خجلان قهقهه خصمه
وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
أتى الكند من اسبان يحمي قمامة
فكان تقضى ملكه قبل يتدى
فما عقد الرايات إلا محلا
ولا حل الرايات إلا معقدا
ووقعة يوم التل إذ قبضت به
جبابرة الافرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سرادق ذلة
ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقي سلاحه
وينساق ما بين السبايا ملهدا
ياعون أسرا باشرائح أحبل
كشكة عصفور من الريش جردا
فتلقى نصارى جلق في مآتم
يسرونها إلا شجى وتنهدا
ألم تير للسلطان صدق نذره
دم الغادر الابرنس فاقتيدار بدا
وباشر بالقتل وسط خبائه
وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الأرض مهربا
فأدركه الموت المفاجىء مكمد
وما طرق الاسماع من عهد آدم
كملحمة التل التي ثلت العدا
أتوا واديما زال ينفي خبائثا
ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى

به جثمت أصحاب ليكة وهي في
ذراه ذا فيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا
لأمر صلاح الدين في الناس مخلصا
واعدى جنود الرعب تردى عداته
وسلم جميع المسلمين مجنسا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل
سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وللرشيد بدر النابلسي:
هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف الله أقوام بما نلدروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا
الله طيب العشايامنه والبكر
الآن قرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حافاله السهر
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
السلام من بعد طي وهو منتشر
يانور مسجده الأقصى وقد وقعت
بعد الصليب به الآيات والصور
شتان ما بين ناقوس يدان به
وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له
شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر

يامالك الأرض مهدها فما أحد
سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثمرا
الا لتعلوبه أعلامك الأصفر
أضحى بنو الأصفر الانكاس موعظة
فيها لأعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة
على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها
حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر
هذا الذي سلب الأفرنج دولتهم
وملكهم ياملوك الأرض فاعتبروا
مراكز ما اختطها الخوف مذمومة
عاما ولا ريع أهلها ولا ذعروا
ولا أصرح بأسماء البلاد فقد
أسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك مجمل قولي عن مفصلة
في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:
المم بدار الناصر الملك الذي
في كفه للجود سبعة أبحر
فلما مررت بملكه وفتوحه
فاسخر بما يروى عن الاسكندر
وإذا بصرت بجاشه وجوشه
فاحث التراب على ذؤابة سنجر

وللشهاب فتیان الشاغوري من قصيدة:
كسرت على كسرى لعدلك دولة
قصرت مهابتها تطاول قيصر
أهدى صلاح الدين لاسلام اذ
أردى قبيلا الكفر ما لم يكفر
رب الملاحم لم يؤرخ مثلها
العلماء قدموا في قديم العصر
خلعت عليه خلعة الملك التي
زيادت بهاء الطراز الأخضر
راياته صفري يردن وتنثني
حمرات نجية مع آل الأصفـر
لم تمدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة
من كان ذي نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ
بيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمر فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بيـ
من الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ
حجرا المفضل عند أفضل معشر
فكانه انسان عين صورة
يلقاك اسوده بمعنى أنور

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان مازال مقيماً بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وببيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يجرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواسيره وأحكم في التعمير تدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتتم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصره وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الأفضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الأسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروح والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء أسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهناً ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتولييه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الكافرين، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والأتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى، وحسام الدين طهان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولا تعجلوا فظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوال وهو أول يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، ونخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدردم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاوي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصناً صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم بسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الأمير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفر بلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمين فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلفت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يربط كوكب في خسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبينين قد

امتنعت عليه هونين، فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفذ الأمير بدر الدين دلدرد، ففتحها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين، وكان بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكا ناظراً في أمور رعيته، ثم دخلها وسكن بالقلعة وسكن الأفضل برج الداوية، وولى عكا عز الدين جرديك، ووقف دار الاستتار نصفين نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصوفية، ووقف دار الاسقف بيمارستانا، ووقف على كل من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدم الرسول العائب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنئ السلطان بما أفردته الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من نجاح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلا من يعترف بيمينه ويغترف من يمينه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همدان، وأذربيجان، وإران، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لا يكون في بحر سلطاننا جداولاً، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسباح مشغوف، ما يفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، والمخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للأخرة دنياه، فلا جرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأكمل جهداً في الجهاد، وأملك جلداً على الجلال، فإنه

بأشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على
الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه،
ومن أول هذا العام إلى متناه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد
ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مضى الحر وعض البرد،
بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم،
وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما
تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام
وشد ظهوره، وأنشد العمد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيــــــــــــــــات على الدوام دوامي
هي في النصر نجدة الاســــــــــــــــلام
في يمين السلطان ان جردتها
أشبهها صواعق في غمام
تنثر الهام كالخروف فما أشـــــــــــــــــ
ببه هذي السيوف بالاقلام
في محارب حربه البيض صلت
وركوع الظبي سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما دخل بينكم إلا
كدخول المروء في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض،
أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة
برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت،
وسعايات في السلطان شعشت، وذلك في شؤال ونحن على حصار
صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر،
وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين
أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى
العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرحمة والرفقة إلا من هو عندنا
أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرسائل
فلا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع، فإن الشريف يتضع شرفه بمقارنة
الوضيع، فقال هذه نصرة مبتكرة، وموهبة مبشرة، بدرت وندرت فنحن
نعجل بها بشيراً، ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيراً وكان في الخدمة
شباب بغدادى من الأجناد، وقد هاجر للاسترفاد، وتوجه بعد وصوله،
وتنبه بعد خموله، فسأل في البشارة إلى بغداد، وزعم أنه يداوم إليها
الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت:
هذا لا يحصل له وقع، ولا يصل إليه نفع، والواجب أن يسير في مثل هذا
الخطير خطير، ويسفر في هذه النصرة الكبرى كبير، ثم سار المندوب
وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب، ولما فتح البيت المقدس
أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب، ووصل البشير الجندى فحقروه
وماوقروه، فإنه كان عندهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظروه بتلك العين،
وحبوه بما يليق به من الرقة والعين، ونقم على السلطان إرسال مثله،
وتسمج المندوب بكلام أخذ عليه، وبدرت منه أحاديث نسبت إليه،
وقال في سكره وحالة نكره مانعرض عن ذكره، فخيّل وموّه، وتنكر وتكره
وظن أن لكلامه أصلاً وللفظه منا وصل، وانتهت إلى العرض الأشرف
مقالاته، وعلمت جهالاته، وتجنّى على السلطان بإرساله، وطرق إلى هداه
ما انكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعاية
طريقاً، وطلبوا الشمل استسعادة بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل،
ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه
ينعت بالملك الناصر، نعت الإمام الناصر، ويدل بهاله من القوة
والعساكر، فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه، وبرز الامر
المطاع بإرسال أخي وانفاذه، وقالوا: هذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا
في كشف سر الأمر بالمراد، فإن أخاه هناك مطلع على الاسرار، وهو
منتظم في سلك الاولياء الأبرار، وعوّل عليه الديوان في السفارة، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً، وقال: أخو العباد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهر سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدمه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدمه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل. والمظفر. والافضل. والظاهر، ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريره بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أدخل مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلظة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يجبط عملي، ويهبط أمني، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستعفاف، وقال: أما ما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمي لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وما عزمي إلا استكمال الفتوح لأمر المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما في النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزیزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولأرفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولا مؤتم بالمرء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المباحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التئائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن نما أضحك بثغر الاستعبار ما انتهى عن العوام وأشبه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سكير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

وما نقر منه كل طبع ، ومجه كل سمع ، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرض سوابقه وأواخيه .

ومنها: ما قضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ما أوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتأخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لا يعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفى فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعاده أن يهجن مساعيه الغر المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفراً،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)^(٧٧)، فمن الذي زلزلوه فثبت، ومن الذي حصدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللرأي الصلاحي مايزيد علوه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابن القادسي أن الجندي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجي، قال: وكان صبيّاً كثيراً الادبار، مشمراً في دروب بغداد، ثم توجه إلى الشام هارباً من الفقر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الدين بالانكار عليه، وقيل له: أما كان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الديوان، فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقبل عذره، وأما ابن البوشنجي فإنه حين وصوله إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر عليه، فلما مضى الأسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فتح بيت المقدس في هذا العام، فالحج والجهاد ركننا الاسلام، فاجتمع جمع جم من أهل ديار بكر والجزيرة والشام، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدّم شيخ أمراء الاسلام الكرام، فودّعه السلطان على كره من مفارقتة، واستمهلته ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قد بلغ والشيب قد أنذر، والفرض قد أعذر فاغتنم فرصة الإمكان قبل أن يتعذر، فمضى والسعادة تقوده، والشهادة تروده، حتى وصل إلى عرفات، وماعرف الآفات، وشاع وصوله، وذاع قفوله، وضربت طبوله وسالت سيوله، وجالت خيوله، وضربت خيامه، وخفقت أعلامه، فلما أصبحوا نقرت كالعادة نقاراته، ونعرت بوقاته، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه فأوقع به وبأصحابه وأبلاهم بجراحه ونهايه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكد اسبابه، وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا، وهتكت أستارهم وافتضحوا، ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدّم إلى خيمته، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معه إلى منى فقضى ودفن بالمعلّى، وتم ذلك بقضاء الله وقدره في قلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمه، وكيف لم يراقب الله وأحلّ حرمة، وكيف عدا على الحاج العائد بالله وسفك دمه، فكتب محضراً على ما اقترحه بعذره فيما اجترحه، وألزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكرهين غير مشتبهين، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى، فلما انتهت الحالة إلى الخليفة أنكرها انكاراً

شديداً، ونسبها إلى طيش طاشتكين، ولم يجد له رأياً سديداً فلا جرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرها له حتى نكبه بها بعد سنين، وحبسه بها وأطال سجنه، ثم عفا عنه بعد مدة مديدة، وشدة شديده، وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها، وولى اماره الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته، لأمه على ترك الحزم واضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجنة بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عز الدين ابراهيم في بلاده، مقامه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمد بن القادسي في تاريخه، ونقلته من خطه: أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدم أن يرفع علماً على الجبل بالموقف فمنعه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحاج الشام، ونهب البعض البعض، وجرت جراحات، فجرح ابن المقدم ولم يغير العادة في ذلك، ومات ابن المقدم بمنى في اليوم الثاني، ووصلت النجابة من مكة فأخبروا بما جرى من أصحاب ابن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرأ ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شوال من هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر، وكان كاتباً بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة.

قال: وفي خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بابن المنى، وكان فقيهاً زاهداً صالحاً عالماً، مولده سنة احدى وخمسمائة، وتفقه عليه جماعة من أئمة الحنابلة، كالحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيخ الموفق عبد الله

- ٨٦٢٣ -

ابن أحمد بن قدامة، ومحمد بن خلف بن راجح، والناصح عبد الرحمن
ابن نجم بن عبد الوهاب، وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي
وغيرهم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومراقبة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكرمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة بإحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأول من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحل والديباج والوشى، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهد السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شداد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيء أمرها، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعقربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبابة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعل، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أنني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قويا، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأول ، وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى دمشق عائداً من القدس ، فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام ، وكان له غائباً عنها أربعة عشر شهراً .

قال: وفي ذلك اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج أنهم قصدوا جبيل ، واغتالوها فخرج منزعجا ساعة بلوغ الخبر ، وكان قد سير إلى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيل ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك ، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة ، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني ، ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب ، ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة ، ووصلت إليه رحمه الله في هذه المنزلة فإنه كان قد سير إليّ إلى دمشق يقول تلحقنا نحو حمص ، فخرجت على عزم المسير إلى الموصل متجهزاً لذلك ، فوصلت إليه امتثالاً لأمره ، فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلزم مطالعته ، ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على السنة الحاضرين ثناؤه عليّ وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر أجمع ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد وحاصره يوماً يحسه به ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقوية للعساكر بالغنائم ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى الساحل ، وهو قليل الأزواد ، وهو محيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسى ، وكشف لي أنه

ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلاذي، وكان الله تعالى قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيتَه وحب الجهاد فأجبتَه إلى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى، وهو يوم دخوله الساحل الأعلى، وجميع ما حكيتَه من قبل إنما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهدوه، ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته، وأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قال العماد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه أثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقبل له هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عمارتها وتديرها الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العمارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيد العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شريقها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعه، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بالإيمان مؤسسه، فلما استقر قراره أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة

وحدها، وكان الصفي قد بنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بالقلعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرها وتحسينها، وظن أنها تقع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسناها، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان، وقال ما يصنع بالدار من يتوقع الموت، وما خلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة، وما جئنا دمشق لنقيم، وما نروم أن لانريم.

قال: ثم هم بالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: وما أحسن ما قال ابن الذروي في الآراء الفاضلية من قصيدة مدحه بها:

لرأيك هذا النصر للدين ينتمي
فلا ينتحله كل غضب ولهزم
وإن كان فيه للأسنة والظبي
مساعدة فالفضل للمتقدم
تشير على الإسلام منك فراسة
لها حزم طب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها
قواطع بترأ ونوافذ أسهم
ألا جذا فتح نشرت لواءه
وقلت لخيّل الله يا خيّل أقدمي
وقمت وقد نام الأنام مناجيا
بمولاي نَجّ المسلمين وسلم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل ييوس إلى عين الجر إلى الدلمية على البقاع واتى بعلبك، وخيم بمرج عدّوسة، ثم رحل على سمت اللبوة ثم أتى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعد الجمعان، فخيم السلطان عند نخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمش، وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه، وطلعت في أبراج الأطباق نجومه، كأنها من التبر مصوغه، وبالورس مصبوغه، صفركأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهره لكان طوقاً كأنها هو خرط من الصندل، وخلط بالمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس، وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبدأ بقصده، واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها، وانها إذا ملكت ملكت طرابلس فأقاموا بقدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، فاستخرج مافيها من المخزون، وفتح حصن يحمور وسامه الدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فأشار على السلطان بقصدها، وتكفل بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون والمعقل الشمالية، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية

وعوّل عليه فيها، وقال: إن الاشتغال بطرابلس مع احتراسها يذهب الزمان، ويفوت الامكان، والمسلمون بجيلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قوله، وأصغى له ورد طوله، وكان قد وصل إليه مقدمو جبل بهراء، فوفر لهم رواتبه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل

في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشفه، وآكام معشبهه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ماقدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، ومملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم ما اشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقواه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبئة لقاء العدو، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدو، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها وما بها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطراطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهناء بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان بأخواب سور البلد، وقسمه على الأمراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروح كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بها هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخرّبها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في أثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وما استتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محققاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقية، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاستتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولا طريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاء ماتم على الفرنج في الساحل جهاز أسطولا يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدم عليها طاغية يقال له المرعيط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لا يظهر له رأي ولا يرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصنيفها وتكثير ستاتها، وأجلس الرماة من ورائها فهازال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق مافيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فتكبتها السلطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتزاحمت الأثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطئ البحر، وجانبها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جبهة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنها، واحتَمَوْا بقلعتها، فما زال قاضي حيلة يخوِّفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جيلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جيلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة، وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف ببكسراثيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جيلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جيلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في أملاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا بتحاذفون بحجارة اليد، فإما رأى عدو الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لا يخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذرائعهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمّنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيرته وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ما أخافه.

قال: ورأيت بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخزّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحووا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاء مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تحيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسه، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفر، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلّى عن البلد بفتحه

البؤس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس،، وهي متشوهة متشعته متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنها زاد سروري بأنها عادت للاسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحبالتها بعدما تبدلت رشدتها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت، ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرخيل دخل المدينة ورد إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانئها وشوانئها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لاترام، واعلاقتها لاتستام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينها، ومافي البحر مثل مينائها، ولا للمراكب الواردة مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارها، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقاً عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها، ولما وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال مامعناه: أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر

سلطانك، وظهر احسانك، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة، لملكتم قيادها إذا أعدت إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلا جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج، وسار إليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقانيم، وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم، فقال له السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائلون في طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدها وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قرية من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضر بها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعد في السور من الترقى إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدم وتواترت المنجنوقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتد الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناراً، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطريق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء ليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين وادين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حولها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه سوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سخاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأيمن، والسمو الأيمن، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجدد العالي، والجدد المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبهة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرحية والجنداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدايين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللصور سجود وركوع، وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان بهادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتوا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلعة، وتفادوا من الخوف لا من القلعة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما امنوا على المال والنفس، حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النواب، وما استقر خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندر، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيريين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضح المنهاج.

فصل

في فتح بكاس والشعر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطئ العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فأحرق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع مساكن فيها، وكان لها قليعة تسمى الشجر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نواذر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ.

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

ونزل على العاصي في طاعة الله على تل كشفهان، فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحوّل خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشجر، وهي تلة شاخحة من أعلى التل مطلة على واد عميق، وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشجر، وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها، فبينما هو مفكر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب، فارسلوا في طلب الأمان واستمهلوا ثلاثة أيام، فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشجر شاغر، والكفر صاغر، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس، وتلك الاعمال على غرس الدين قليج، وكان هذا قليج قد تسلم كفر دين، وهو معقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مخيمه يوم السبت، وهو حسن السم، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشجر، قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهدّ أركانها، وما برح حتى سواها بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قال: وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع: جبلة واللاذقية وصهيون وبكاس والشجر وسرمانية. وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية، فقد كان في هذه المعقل من أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكية التي فقئت، ونحرها الذي عنه حلئت، ولم يبق لأنطاكية

- ٨٦٤٥ -

من الحصون سوى ثلاثة: القصير، وبغراس، ودر بساك، وقد أصبحت
معدومة الأطراف، قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

فصل

في فتح حصن برزیه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزیه، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علوقلتها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنیقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحرق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنیقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) (٧٨) ونهب جميع ما كان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لخصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وما انصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم فإنهم عدد محصور عما قليل تفنى عدتهم، وتفل عدتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه، ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدو الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما رد السلطان رسوهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبي أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاه الأمير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر.

قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال يطلبها حتى أظهرها وأحضرها، وزوجها وابنة لها، وجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس أنطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدو، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى أنطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولا ترقى إلى ذروة تمنيهِ الأمال، وقد أخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوة، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتوح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهدنا في الفتوح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الأمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدون مواهبه مما لا تحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لا تحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله، وحاضرها: الله أكبر، وما بقي المساكين يستبطن خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريسة وجيهة، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولا كريمة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها وإخلاص شكرها إلى ماضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) (٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده) (٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا) (٨١) (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) (٨٢) فرضي بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدسوا به وسحبوا، وثقلت به موازين أعمالهم، فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونصرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحسرتها (وإن تُعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها، وإن عجزنا عن حصرها، فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارئة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، وما يسأل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنما يقال ما اسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثرات الجنة، لامقطوعة ولا ممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتیان الشاغوري وقد تقدم بعضها:

لما ملكت حصون انطاكية

يئس الصليب وحزبه من مظهر

أردت كل مثلث متكبر

بمـوحد متواضع ومكبر

برزت إلى برزيه عزمتك التي

مدت يداً عن مطلب لم يقصر

- ٨٦٥٠ -

فتناولته بأيدها من باذخ
في الافق ذي مثل يروع مسير
فانهض لصور فهي أحسن صورة
في هيكل الدنيا بدت لمصور
ماسور صور عاصم منه وهل
سور المعاصم عاصم لمصور

فصل

في فتح حصن دريساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دريساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العماد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاة للإسلام منيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياماً، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوّبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دريساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيات، فما زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدّة وذخيرة وغله

واثاث وقماش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيام، ثم أخرجوا من ديارهم،
وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العمادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر
الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد
قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت
باخراج حصونها من ولايتها أرواحها، وقد بقيت غرضاً للعسكر،
وعرضاً بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدرأ غير مشروح، والكفر مفجوع
بالنفس والبلد، والأمل والولد، ونحن لراحة لنا إلا في هذا التعب،
ولأرب لنا في غير هذا الأرب، ولا اجتهد لنا إلا في الجهاد، ولا مغزى لنا
غير الغزاة، وما نرجو من الله إلا انجاز العدات في جميع العداة، أصبحنا
يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبان صباح الموحدين وأبيننا أمانهم
إلا أن يقدوا نفوسهم، وينزعوا من الحرب لبوسهم، ويخلعوا بأسهم
ويلبسوا بوسهم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدوا خمسة آلاف دينار من
أثمانهم.

فصل

في فتح بغراس

قال القاضي ابن شدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دربساك، وكانت كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها، وأحرق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها.

قال: وأنا ممن كان في اليزك في بعض الأيام، لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام. ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقى العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقال العماد: ولما فتحت دربساك لم يبق لنا همة إلا بغراس، وقد شارف رجاء أكثر الناس في فتحه الياس، وهو حصن حصين، ومكان مكين، هو للداوية وجار ضباعها، وغاب سباعها، وهو بقرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منها للدين دينه، ويشنون الغارات، ويسنون النكيات، ولا يرحون بازاء أنطاكية صفاً يرمون، لأهلها فتحا وحتفاً يتناوبون على سبيل اليزك، ويدعون العدا إلى المعترك، وليس بينهما إلا النهر، فصعد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك التل، ونقل إليها أحواض الماء ورواياه، وبث في النواحي سراياه، وفرق على الجميع عطاياه، وأقمنا عليه اسبوعاً نجري إليه من كل منجنيق من فيض الحجارة ينبوعاً، ونحن نفكر فيما يكون، ومتى تتم الحركة وفيه السكون، وهذا بيكار يطول، وتعب لا يزول، إذ رأينا باب الحصن وقد

فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لأهله، وسلم الحصن بها فيه من الأموال، وقدّر مافيه من الغلة تخميناً باثني عشر ألف غرارة، وسلمها السلطان مع دريساك إلى صاحب عزاز علم الدين سليمان بن جندر، وكتبت عليه جميع مافي القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود، وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر، فقلت: كأني بمن تولى القلعة وقد باع الغلة وشفى من فقره بها الغلة، ثم أشار بتخريبها وهدمها، ولم يلتزم بحكمها، وقال: ابقاؤها غرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجاء الأمر على ما حسبته بعد سنين، وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مقدم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك سنة سبع أو ثمان وثمانين، وهذان الحصنان دريساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشققان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفتح العظيم، وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

فصل

في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفس أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذلاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدوها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الأسرى وانقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شداد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد، وكوكب،
فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال العماد: وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر
الغربية، وأتحفهم بالتحف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل
إلى جانب حلب وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين بالاقبال
المتضاعف المترقي، وشاهدنا من النظارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها
ناضرة، وقلوباً حاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطها إلى الله للابتهاال
بالدعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألقى ولده الظاهر قد سار
فيها أحسن سيرة. ثم سار منها على طريق المعرة وقصد زيارة الشيخ
الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فتبرك

بزيارة الميت والحي، ثم وصل إلى حماة فنزل بقلعتها، ومعه أمير المدينة
النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وهو عز الدين أبو فليته
القاسم بن المهنا، وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحباً، وعلى
معاضدته مواظباً، وما حضر معنا على بلد أوحصن إلا فتحناه، وكان
السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيئته، وكان بجانب السلطان
جالساً، ولنظرة عليه حابساً، وكانت قلعة حماه ذات تل منبطح، فلما
تولاهما تقي الدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها، فطلع السلطان
تلك الليلة إلى القلعة، وسر بها رأى من الحصانة والرفعة، ووقف الملك
المظفر لعمه وجرى في الخدمة على رسمه، وأصبح السلطان راحلاً، ولم
يقم بحمص وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبوة ووصل إلى
دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بأن يريح عسكره، فقد أحمد في
عامه مورده ومصدره، وأربح في سبيل الله متجره، فقال: إن القدر غير
مأمون، والعمر غير مضمون، وللغرض أوقات وللدهر آفات، وبقيت مع
الكفر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختل أمرنا المصون، لاسيما صفد
وكوكب فإنهما للداوية والاستبارية في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

- ٨٦٥٧ -

واهية السداد، فنخرج ونشتو عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما
خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قال: فما لبث السلطان ولامكث، ولانقض عهد عزمه على الغزاة
ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

فصل

في فتح الكرك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنها في مدة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعد من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيماً بتبنين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشمالية، لقصد جبله واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فني أزوادهم، ونفدت موادهم، ويثسوا من نجدة تأتيتهم، وأحلت عليهم مصايفهم ومشاتيتهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسائل تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أول كأس الحمام، وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعته: «أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته، وأخذ عدوه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكتبه، خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيب عيذاب، ولما نبأ به المنزل منها، وقل عليه المرفق فيها، وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، وحصل لمن جرت على يده أجرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، ساريا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صباحها، وقد رغب في خطابة الكرك، وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتبس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

فصل

في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والوطن والولد، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحرق العسكر بها، ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحوّل عظيمة، ولم يمنع ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب، فقال في تلك الليلة: ماننام حتى نصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصباح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكّت من خشية الله»

قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوال.

وقال العماد: لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل، وجعل طريقه على مرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجاء إلى صفد، وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد، فنزل عليه في العشر الأوسط من رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليها إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوال بالأمان وراح إلى صور وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت

الموقوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفد من أيديهم دخلت أرجلهم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنها كانت في عين الاسلام قذى، لا يتوقع منها على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهل الله صعبها، وأوطأ هضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مذعنين، واستسلموا مسلمين، وتبرؤوا من حصنهم، ونزلوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهائنهم للإستمهال في نقل متاعهم، وندموا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد، وقالوا: متى فتحت صفد فإن كوكب لا تمتنع، وأملنا عن حفظها ينقطع، والرأي أن نجرد لها نجدة لعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا، فسيروا مائتي رجل فتفرقوا في تلك الأودية يكمنون في الشعاب والهضاب، واتفق أن أميراً من أصحابنا خرج متقنصاً فوق أحداهم في قنصه، وحصل طائر منهم في قفصه، فاستغرب وجوده في ذلك المكان فهتده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعدته حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الدين قايماز النجمي وأجناده إلا وقد نزلوا عليهم في آكام ذلك الشعب ووهاده، فتلقتوهم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحد من أولئك الضلال إلى نهج فرار، فما شعرنا ونحن على صفد للحصار، حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مقرنين في الأصفاد، مقودين في الاقياد، وكان فيهما مقدمان من الاستتار، وقد أشفيا على البتار، فإن السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحد من الاستتارية والداوية، فأحضرا عند السلطان للمنية، فأنطقها الله بما فيه حياتهما، وناجيا بما به نجاتهما، وقالا عند دخولهما: مانظن أننا بعدما شافهناك يلحقنا سوء فعرفت أن بقاءهما مرجو، فمال إلى مقالهما، وأمر باعتقالهما فإن تلك الكلمة حركت منه الكرم، وحقنت منهما الدم، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال. حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتي الصوم

- ٨٦٦٢ -

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع الدين طغرل الجاندار، واستبشرنا
بانعكاس ما أحكمه الكفار.

فصل

في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحرق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوز به نشاب العدو، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوز به، ولا يقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلو مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجدر رحمة الله حتى تمكن النقب من سورها، ولما أحس العدو المخدول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخدول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل إلى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العواء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا: لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق، والنقب والتعليق والحفر والتعميق، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديدم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من قلع الأوتاد وتوتد الأقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانداء، والانوار معدومة لوجود الأنواء، وماء الشرب مفقود مع سيول الماء، والرواحل في الطين باركة وهي للعلف تاركة، والطريق زلقة، وهي مع سعتها ضيقة، فنقل السلطان خيمته إلى قرب المكان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجارة ماصار له كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصابرته، ونحن نركب إليه من الخيام بكرة وعشية للسلام، وتنفيذ المهام، حتى بلغ الرجال أماكن النقوب، وتمكن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التدلل، وسلموا الحصن بالأمان، وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحد سوى قايماز النجمي على كره منه، وذلك في منتصف ذي القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان: «مما تجدد بحضرتنا فتح كوكب، وهي كرسي الاستبارية ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم، وكان بمجمع الطرق قاعداً، ولملتقى السبل راصداً، فتغلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بلادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلا صور، ولولا أن البحر ينجدها والمراكب ترددها لكان قيادها قد أمكن وجاحها قد أذعن، وما هم بحمد الله في حصن يحميهم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عداً)^(٨٤)، وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداوية المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السامي أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته المثقلة وقضيته المشكلة، وعلته المعضلة، والله تعالى المشكور على ما طوى من كلمة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بلاد الشام اليوم (لا يسمع فيها لغو ولا تأثيراً إلا قيلاً سلاماً سلاماً)^(٨٥) ف(ادخلوها بسلام)^(٨٦) وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه، وقد طلع من الأنواء في موكبه والثلوج تنشر على الجبال طي ملائها، والأودية قد عجت بهائها وفاضت عند

امتلائها، فشمخت أنوفها سيولاً، وخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً والأوحال اعتقلت الطرقات، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات فتجشمتنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدو والزمان وقد تحرّز الحظ المكابر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها» ثم قال: «والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لا يسلمون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وأنهم لعنهم الله أمم لا تحصى، وجيوش لا تستقصى، ويد الله فوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسراً)^(٨٧) وما هم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تغاوت وإن لم يقدفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينية، والثغور المغربية يندرون بأن العدو قد أجمع أمراً، وحاول نكراً، وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسلوا سيوفاً للبغي لا يبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها، وأما نحن فبالله ندفع مانطيق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه إلى ماله دعينا، ونؤمل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، ونرجو أن يمدنا بنفسه سريعاً وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يليها دعوة إما أن يطيع بها ربه لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدة الاسلام لشدته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن له بدار، واللجنة اللجنة فإنها لاتنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النار، والهمة الهمة، فإن البحار لاتلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنة نزل على أنطاكية، وينزل ولدنا المظفر تقي الدين على

اطرابلس، ويستقرّ الركاب الملكي العادلي بمصر لأنها مذكورة عند العدو أنها تطرق، وأن الطلب على مصر والشام منه يفرق، ولاغنى عن أن يكون المجلس السيفي بحراً في بلاد الساحل يزخر سلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحاً، وما يدعى للعظيم إلا العظيم، ولا يرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم، هذا والأقدار جارية، ومشية الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإننا لانرتاب بأن الله تعالى مافتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنما يؤثر أن يتساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولا يسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفر المناظر، فإنها هي سفرة قاصدة. وزجرة واحدة، فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غماً، قد عاشوا ماعاشوا ولا يعرفون إن لهم مع عمهم عمّاً.

وله إليه من كتاب آخر وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور: «المولى على حسب اختياره إن سار فمثله من سار وسر، وقاد الجيش وجراً، ونفع الولي وضر العدو الذي أضرب، وإن أقام فالعذر الذي أقعده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج، ولا يخف استقصار عزمه إن ركد أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، وودّه ودّه، وله من اللسان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحدّه، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عمادي إلى الديوان بفتح الكرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فيه: «والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلاها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلاها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها، وأنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال، وآلات العدد، والعدد المتواصل الممدد، ورتب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهديب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهو يوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العماد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيهما في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمداني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد : ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة إلى قرب الصياقلة مجذوبي السيوف لادالة الدولة الزاهقة، ونصرة الدعوة الباطلة، وهم ينادون يال علي، وفي زعمهم أنهم يقبلون بالصولة، ويقلبون بالباس لباس الدولة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكتر بهم مكترث، ولا انبعث إليهم منبعث، فلما تحققوا أنهم لا يجيب لهم ولاداع تفرقوا في الدروب واضمحلوا، وكانوا عقدوا على الوفاء فأنحلوا، ثم أخذوا ووقدوا، واعتقلوا ولم يستنقذوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهم، وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنييتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهم مدد، فطب نفساً، وزد عند الله أنساً، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية، وتتوقع منهم البلية، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقصص، وساورونا بالغصص، فقال له: أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة: كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمراءه وخواصه، وذوي استخلاصه وجهاته والزامه، كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه، وكان بالشام في كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب، وملوك يلوذ بهم الاقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد ردّ الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى مالك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك، ووفدوا إلى جنابك، فلا يجدون بعد الله إلا جودك، فأكرم وفودك، فأغرورقت بالدموع عيناه، وبالسماح يده، وأقسم أنه ما عاش

لا يرد قاصداً ولا يصدّ وافداً، وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين،
وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي
من بغداد:

فلا يضجرك ازدحام الوفود
عليك وكثرة ما تبذل
فانك في زمن ليس فيهِ
جواد سواك مفضل
وقد قل أهلكه المنعمو
ن وقد كثرت البائس المرمّل
ومما فيه غيرك من يستما
ح ومما فيه إلّاك من يسأل (٨٨)

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب
الجويني، وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون
حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء
وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر،
وما أظن أن الله أجرى على يد المولى ولا فرح عدوّ له بأن ينقطع رزق مثل
هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا
التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ومما يجب أن يعلم
المولى أن أرزاق أرباب العمام في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي
ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» وفوق الرقعة
بالخط الصلاحي: «وقفت على رقعة القاضي الفاضل، وما يقطع لأحد
رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علاوات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى
لذا بما ل ذا، و على الجملة ما تقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد
علمت أكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

- ٨٦٧١ -

الرقعة ذكر الجمال الخيفي، وكأنه كان له مثل حاجة الجويني، رحم الله
الكل أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العماد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضررها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة، وعول عليه في الولاية، والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العماد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعمالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدّد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايتباع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال، وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب

ابن سكينه، والوزير يومئذ معز الدين بن حديدة، يأمر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر، فاستقبله السلطان وأولاده وأمرأؤه وأجناده، وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي، فلما انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معه الهدايا والتحف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعددها النفائس، وتاج ملكهم السليب والملبوس والطيب والصليب. وهو الذي كان فوق القبة بالصخرة المقدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك من الأسباب المذنسة، وسار الضياء ان رسولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم فراغها راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها وأدراعها، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت الذي تعظمه النصارى فدفن تحت عتبة باب النوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحاس وقد طلى بالذهب، فجعل يداس بالأرجل ويصق الناس عليه، وذلك في سادس عشر ربيع الآخر، كذا قال صليب الصلبوت، وقد نص العماد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدّة في سنة احدى وستائة، وأراد على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك، ثم قضى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنة اثنتين وعشرين، وتولى بعده فأقام نحو تسعة أشهر، وتلقب بالظاهر، ثم توفي وولي ابنه المستنصر المنسوب إليه المدرسة ببغداد، ثم توفي سنة أربعين، وولي ابنه المستعصم بالله وهو الخليفة الآن، والله المستعان.

فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف ارنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياماً نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه وما أحسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الإقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت وينظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاوراة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فمأطله السلطان، وما آنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لا يشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محتز من علم المركيس لعنه الله بحاله، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأل، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرينا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقاً أيضاً من جانب أنطاكية لانتهاه أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكران ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولأزم السلطان فلما قرب انتهاء مدة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما رده بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان، فتصور صاحب الحصن فقليل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألّم من ضبطه وانكشفت سريره الغادرة، فأمر بحمله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لا يعلم، وقيل لعله يحسن ولا يجوز إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وما عنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، ف قيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون ،
اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم
عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها
وسلموها، فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن
الأكراد، أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفاً
أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور
يطلب الدخول إليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في
ذلك الوقت، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد
وصرامة عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر وما أذنوا
لي في تسليمها إليك، وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن
يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من
الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور، ولما كان يوم الاثنين
سابع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد
قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي
نحن عليها، فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الوقعة،
وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض إليهم يزك الاسلام
وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف
ما قتلوا، ورموا في النهر جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك
للسلطان يعرف بأبيك الاخرش، وكان شجاعاً بأسلاً مجرباً للحرب
ممارساً فتقطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم
بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وفي يوم الأربعاء
تاسع عشر جمادى الأولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته ،

فتبع العسكر خلقاً عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكر فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأمر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمان، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ما ذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاثلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف، ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون، ويصلون إلى جبل تبين يحتطبون، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهم أيضاً خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبين حتى قطع تبين، ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك لعنه الله، وجرى بينهم وبين هذه السرية السيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعث بعوثاً كثيرة فعاد الفرنج ناكسين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من الترك، وأربعة من العرب منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسن الشباب يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكاً من ممالك السلطان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم

يجدوه فعرفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للشار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويسيرون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغر، وأخذ الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون)^(٨٩) وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي، وإنما الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيبك الساقى فاعتزل إلى صخرة واحتوى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لا يقدرّون على الاقتحام إليه بالخيّل، فرموه بالزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاءوا إلى أيبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام، وهم يظنون إنه لا خلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواكير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجاله المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لأقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدو ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدتهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير، وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزّل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد ركبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: وما رأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حذرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لا ينقطع. وجرى بينهم وبين اليك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التل، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدده، وصار الطريق مهيعاً يمر فيه السوقي ومعه الخوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، وركب على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيوف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهاجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض ببعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرح صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، وما زال يسبح وهم حوله يرّدونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: —يعني أمراءه— بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحه، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالأجام المؤتشفه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقر رجالاً يصدونهم عن سبلها، ودمنا نصدهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالصور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهمز الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروح روعه، فبلغ العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروح وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومذد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمد لهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنّيهم من القنا والنشاب ثمر الردّ متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرية المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الواقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسلهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بشوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاوش أن ينادى في الناس: يالاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبئة الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لاجتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة

من المماليك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر
الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسالان بغا،
وجماعة الأسدية الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى
وجمعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم
على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصره دين الله، ولم يزل
القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع
ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج
لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلات كثيرة، وتكاثروا على تقي
الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم
لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد
تأخر ظن به ضعفاً فأمدّه بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه،
وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى
الدين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب
داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد
راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة
ولا يسبقونها وهم يسرون خبيّاً وجاءت الحملة على الديار بكريّة كما شاء
الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا
كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو
المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من
العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم
استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها
ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخذ يطوف
على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد،
وينادى فيهم: يا لاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف،
ويتخرق الصفوف، وأوى إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما
المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فإنهم أتبعوهم إلى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدين إلى عسكرهم، فلقبهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الخمل فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان فيه خلق عظيم، ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو، فلما رأى الفرنج نازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطردهم وراءهم، فلما رأهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل، وأنه إنما نجا منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرجال وتداعت، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الأيمان، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو، فهجم المسلمون عليهم في الخيام، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد أجمعهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين، وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فقد منهم، فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقد رأيت وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخدول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع ما في الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخدول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن يخرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً، وكان

كل ماأخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكثرثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئاً وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخللة إلى الهميان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من أرايح القتلى وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلّموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطىء أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصره عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شدة من العساكر ونجمع الرجال ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيهم رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعتهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول، وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عباً السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحضر على حظ الأبد، ويحث على الجلال والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الواقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنها مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينبج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه — وقال في الفتح: عشرة آلاف — قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابيتين لأهل الصولة، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسومين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم

الفقيه أبو علي بن رواحه، وكان، غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق وفقه محقق، من ولد عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري، في الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم موته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعه، وأراد الله تعويقه إذ قرب إلى الآخرة طريقه، وحملت توقيعه إلى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فما علم وراجعت في معناه فسكت وماتكلم، وكان ساعة الواقعة راكباً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي، وكان قال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يخلق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الأحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرموي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشت، وغلّام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع في الواقعة، وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية والأوباش ظنوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الاثقال وعدّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق والثابت قلق والأمن فرق، والغني معدم، والجريء متندم، فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج في تلك المدة

وانتشلوا من تلك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر، فحمل أكثر من خمسة آلاف جثته حملت إلى النار قبل يوم البعثة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عند خيم الأتقال المضروبة، فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها، وإحكام أسبابها، فوجد الفرنج بذلك الفرج، وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ماكان في مراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يوم يأتينا اليزكية بخبرهم، وبما ظهر من أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميم حفرهم، فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم، وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا من ترابها السور، فكانوا يخندقون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سوراً، فعاد نخيمهم بلداً مستوراً معموراً، فملؤوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستره وترسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه لواغل مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً، ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفاضل إلى العماد جواباً عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت ماجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفوع أعظم، والسلامة كانت غريبة إلا أن نقول ولكن الله سلم، والسلطان أعزه الله إذا سلم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وماعدموا، وكل جوهر بالإضافة إليه عرض، وهو جوهر بالحقيقة ماعنه من كل جوهر عوض» ومن كتاب له إلى السلطان أؤله: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) (٩٠)

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمة من الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فاتهم ماداموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف: «والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لا يصدّهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيره أهل اليقين، وما ينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جرى جاره في مضمار الانجاء، وبارى نظيره في الجد والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك، يخرج بلد عن يده، وتمتد يد إلى بلده، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا

وكسلوا ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام
عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق
وقربها، من لدين الله يغار، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان
رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد
الله لنصره راجون، وله باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجون، والمشركون
بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطان قد كتب إلى مصر يستدعي بأخيه العادل
في رجال، فقدم عليه منتصف شوال، وكتب أيضا في طلب الاسطول
المصري، فقدمت خمسون قطعه مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي
القعدة، فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتها وسحقها وبددتها
وكسبتها و سلبتها، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيها من أموالهم ورجالهم
وغلاهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدو
نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن
بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق الحجاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم
يبق لهم دليلا يعرف، وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره، وأمواله مبدولة
وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم،
وعددتهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضا برجال الأسطول، وكانوا زهاء
عشرة آلاف، هذا ورجاله المسلمين يتطرقون إليهم ليلا، ويذيقونهم من
القتل والأسر والسرقه والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدة،
وتقوية النجدة بكل مايمكنه من أسباب الباس والشدة، سير من أحمال
النفط الأبيض—مع عزة وجوده— ماوجده، ومن التراس والرماح من
كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده، وكتبنا في شكره: «وصل السلاح وتم

للاسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد، ومن العجب أن تفنى العدة وما يفنى العدة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتاب إلى الديوان: «قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحيه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرث إلا نار حرصهم، وليس هذا العدو بواحد فيضع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة، إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وانقضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر، فجاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحديد، وتواصلت منهم الامداد»

قال: «ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لاسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للاشقياء، وانهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة مافوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال: «وأبق من عسكرنا من الممالك الأغبياء، والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة، فتحيل في النقلة، فإن يد من لا يرتدلا تمتد، وأمر الهارب إليهم لاتهمه يشتد، وباب الهوى عليه يستد، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أركاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيفين من فرجها فرج». قال: ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوفرة، وفي جماعتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل ما يحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها، وفي الفرنج نساء فوارس، هن دروع وقوانس، وهن في زي الرجال يبرزون في حومة القتال ويعملن على أبواب الحجى، وهن ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعلنه هن عادة، فسبحان الذي أضلهن، وعن نهج الهدى أزلهن».

وفي يوم الواقعة طلعت منهن نسوة هن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليس هن سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سلبن وعرين، ومنهن عدة سبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة وتارة يرخين، ويحرضن وينخين، ويقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء».

قال: وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الاقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب وكتب بالبر، وحث الرسل وراسل بالحث، وسرّح عدنان النجاف إلى سيف الاسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ماجرى من حوادث الزمن، ووصف له جليلة الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمذان

بيعت مادنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجة الاحسان، ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لأمه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانتة، فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولا في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبد، لكونه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته، والارتياح لمصلحته، وأشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم، وقد قدمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه، وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيدا إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسك بن جكر، وهو ابن خال السلطان، وهومن أكابر أقاربه، ومقدمي كتائبه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضاء حقوق الناس ملاحظا، ولم يزل للسلطان في هذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفر عازما، ولما اشتد مرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين بن أبي عصرون، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلغ عمره

ثلاثاً وتسعين سنة ونصفاً، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى ألكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده، وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان، ومن أهل الجدّ في نصره الايمان، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محرم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداؤه، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوكة وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركاً علياً، ذكراً سوياً، براً ذكياً، تقياً نقياً، من ذرية كريمة (بعضها من بعض) ^(٩٢)، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاية في السماء، ومما ليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد» ثم ذكر باقي الكتاب

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صبح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً، يريد البلاد الإسلامية، فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة، وإبلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير، فسر بذلك.

وقال العماد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن يدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحترقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، ومن طرف

كل حبل من الرأي يجذبون، وقلنا: إن وضع هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون، ويغضبون الله ولا يرضون أنهم لا يعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس، وبثنا بالارسال إلى بلاد الروم عيوناً وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار، وبعثنا كتب الاستنفار إلى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا ماهذه المرة إلى مرّه، لايسفها إلا كل مرّ أبيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميّش كميّ.

قال: وعوّّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقه رسالة، وأودعه إليه مقالة، فسار ووصل إلى حلب والقاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الرائح، ووصل وهو مغتاض وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين إليّ، ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ماقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مع السلطان أمراً، وعاد على النجب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد، وقيل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، وندبه فيما نتخيره.

وقال في كتاب البرق: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مائتي ألف دارع، وفي راجل في ديب رجل الدبا، في عدد رمل اللوا، وأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثار كنيستهم بالقدس قمامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قسطنطينية، وكان ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فصدّ عنهم الأزواد، وحرّمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم، وقلت أزوادهم، ولما وصلوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والآجام والوهود والآكام،
تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتاء،
واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا
العلف، وما وجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون،
ومن البلاء ناهلون، لا يقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم
البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في
نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم
الكريمة الرئيسة، ما يعجزون عن نقله، ولا يخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها
من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لا تبوح
بها أبداً، ولا تطلع على مكنونها ومدفونها أحداً، هذا وبحرهم عباب
الموج، وهباب الفوج، فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة
أبحر، هذا وقد نقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين
ألف مدّرع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم
أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:
يا منقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فاكذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدّق الوعد ما مونا تحوّلـه
أما رأيـت ابن أيوب استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحملـه
هاج الفرنج وقد خاروا الفتكتـه
فاستنفروا كل مرهوب تغلغلـه
لما سبى القدس قالوا: كيف نتركها
والرب في حفر منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والأقـدار تحذلـه

وكم ترحل منهم فيلق بفلا
إلى الخوامع ألقاه ترحله
استصرخوا أهل والعدوى تمزقهم
واستكثروا المال والهيجاتنفله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
كلما لج صدم اجل مقتله
سيف امام فلسطين يرى امما
خلف البحار لقد أمهاه صيقله
كم أعدواوكم قد فل جمعهم
من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في
جيش العدو فيسيبهم تخيله

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبة، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغربية إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليذك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوماً في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لا يدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا إليهم، وحكموا عليهم، وطردهوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم، ولهم في كل دفعة من العدو قلائع، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقي الانتشاب، وشاع نداء الأصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لا يعجزهم إلا الرما ولا يهتكهم إلا الأصبا، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الواقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عشر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتدّ سرا سنقر يعدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الاوّل تسلم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال: واغتنم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الاسطول من مصر، فما زال يقوّي عكا بتسيير الغلات والقوّات إليها في المراكب، وملأها بالذخائر والأسلحة والكمأة، فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مراكبنا في موانئها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدبت العوّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السلطان السباحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتباً وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها، وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجاً من خشب، وهوادي من قصب، ويدرجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: مالهذا الولع، بما لاينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت، وشفّت الغليل ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها لكثرة الارسال، ولقد عطب عوّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعوام.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان، فرحل السلطان وتقدم وعزم على طلب العدو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر اليمين، والعاذل في آخر اليسرة، والأفضل في أول يمينه القلب، وأخوه الظافر في أول اليسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكر حلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزرايين النفطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ما أحضره، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلاً ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الأول للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدو بعض الخندق، وقد قوي عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته، فجدد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشرين ربيع الأول وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله ما يقدم عليه عسكر إلا ويعرضهم ويسير بهم إلى العدو، وينزل بهم في خيمته ويمد لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجنب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر عانى ما قيل ويتسع سطحه لأن، ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلا جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من الزرايين والنفاطيين، وباحثهم في الاجتهاد في إحراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضائق حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في إحراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ما طلبه ودخل إلى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالتالث فاحترقا كالأول، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ: « من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدو من خيامهم، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه، وسار به حتى أوقفه على العدو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدم له من التحنّب، واللطائف ما لا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكرمه مكارمة عظيمة، وقدم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدّم قال: وكان الفرنج مذ
نزلوا على عكا صمموا على الإقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج
العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية، واقطاع الحديد،
وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد
له في أركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات، طول كل
واحدة خمسون ذراعا ليشف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر
العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ،
وكل يوم يقربونها، ولو ذراعا على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها
بالخل والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم
الخنديق، وجاء عوام من عكا فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولزمهم
من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين
فريق للقتال وفريق آخر مع الأبراج، فأشفي البلد وبقي له رمق
ضعيف، ورميت الأبراج بكل قارورة نبط فما أثرت، ولم نشعر يوم
السبت الثامن والعشرين من ربيع الأول بالأبراج إلا وقد اشتعلت،
والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان بعكا
شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسن، وكان أبدا يجمع
آلات الزرايين مولعا، ولتحصيل عقايرها متتبعا، وكل من عرفه عدله
وانكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدورا، وملا بالغيظ من أهل
تلك الصناعة صدورا، ولم يكن النبط من صناعته، ولكن الله وفقه
لسعادته، فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاض
واخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق لأحرق
البرج والله ولي التوفيق، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صناع: هذا الشغل
قد خاروا وحاروا، وبعد ما انجدوا أغاروا، فقال الناس: دعه وشأنه،
وما يدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأول قدور
نبط خالية من نار حتى عرف أنه سقاه ورواه، ثم رماه بقدر محرقه،
وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النار على طبقاتها، فأضرم على أهل

السعير سعيرا) وكان يوما على الكافرين عسيرا^(٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته الله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدتها فحبطت أعمالهم وخابت أمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكائنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتك، فأخذوا ما وجدوا، وحصلوا ما نشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر، فركب السلطان بجميع كتابه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بهادهمهم في البحر، فجذّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شوانى المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدوّ برجاله، وأخذوا لنا قطعة، وما زالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعة، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلعو كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو، فركب والناس في خدمته وتعباً تعبى القتال، وقصده مضايقة العدوّ ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدوّ بالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدوّ واشتدّ

السلطان في قتالهم من خارج، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وايناسا له ولرجاله التقى الاسطولان في البحر، والعسكران في البر واضطربت نار الحرب واستعرت، وباع كل فريق روحه براحتة الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شيني وقتل من به، ونهب جميع مافيته، وظفر من العدو بمركب أيضا، كان واصلا من قسطنطينية، ودخل الاسطول المنصور إلى عكا، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر، وطابت قلوب أهل البلد بذلك، وانشرحت صدورهم، فان الضائقة كانت قد أخذت منهم، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كل فريق إلى خيمته، وقد قتل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوه عن الأسطول أيضا، والاسطولان مقابلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنا منهم مدة مقامنا على عكا سنتين أكثر من ستين ألف، ورزأناهم بكل حتف، وكلما أبادوا في البر، زادوا من البحر، وكم جسروا وخسروا، وقتلوا وأسروا، وهزموا وكسروا، وخلفهم خلف، ويقوم مقام مائتهم ألف، وقد أفينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقاءه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ما كان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذ معه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عنّ له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب ماناله من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني، فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم

الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالاغنام والابقار الخيل والبضائع، فتدخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتاز بهذه الديار اختياراً أو كرهاً، فاقضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسألاً، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يجرفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتوى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخاً كبيراً وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقد عرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجره وعزروه، وكل ذلك كان حزناً على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم».

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه، فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرّقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما ثرنا لشار بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم، فتقووا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم ثم العبور، وانهم غلبوا على ذلك، ثم ان الالمانية طلبوا من قليج أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، فنفذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قطب الدين، فإنه كان كارها لجماعة من المقدّمين فتقدّم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق، وقد تبعهم اللصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن ومقدّمهم لافون بن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجرّدوهم، فمنهم من خلص بعد حين بهال جزيل، ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين، ووصل مقدّم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصده، وقام لهم بالضيافات والعلوفات، وذلك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريجوا النفوس، فعن لملك الألمان أن يسبح في النهر لإماطة مابه من الوضر، فعرض له مرض سلك به في سقر، وقيل: لما عبرت جموعه النهر ازدحموا والتطم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لا يخلو من هجمها من آفة، فجرى إليها، واجترأ عليها، فجذبتة سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه ومجت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعمره على الدروج، فتسلم مالك ملك الألمان بآله وأحماه إلى جهنم، وجلس ابنه مكانه، واتبع شانه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيه ميلا منهم إلى أخيه، وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كأنهم من المرض قد نبشوا من أجداث، وأكثرهم حملة عصيّ وركاب حمير، وكل بالأرض التي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطاكية، وثقلت وطأتهم المفاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له وسلمها إليه طمعا في ماله، وأموال رجاله، وكان على ماحدثه فإنه لم يعد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها، وجاءت فرقة منهم ليلا إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الاصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحمالها والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وأخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولا يرى من رفقاتهم إغاثة، فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الاسواق بالثمن الأبخس، ولما تكامل وصول السالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا، فيما وصلوا إلى طرابلس إلا في خوف ولم يسف ممن جاء مع الملك غير ألف، وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوا في لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكا بعد انقضاء مدة، واقتضاء شدة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق، فركب البحر في عدد يسير لايزيد على ألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقال القاضي ابن شدّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً، وجهاز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدّمها كند عظيم عندهم، وإن عسكر بغراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبها وقهرأ، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلّة الخيل والظهر، والعدد والآلات، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلاميّة أنفذوا إليهم عسكريا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكري على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها، ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلّة جمعه الذي تأخر معه، ولم تنزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال، ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلاميّة، جمع عسكري العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو المقابل بباقي العسكري المنصور، فكان أول من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكري حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ ما يليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكري مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلا أن المرض كان سلباً بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، وكان مقترناً بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابراً على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية: «قد عرفنا خبر العدو والمشؤم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحرك ذوي الحمية، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مستنون في طريق العثرة، والسييل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للإسلام مسلمين، وأين المقدمون في الدين، ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدو الناهض، ولا بد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراة الملاحين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: «ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه، وقد تعاظدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفاً عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعاً متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعاً حاسراً ومتدّعاً، مواصلاً ومنقطعاً، وعددهم الجم قد كثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ما قطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصلابة البدنية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة، فيأعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإننا والمسلمون عندك ودائعه، ومماثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لأملك إلا نفسي، وهامي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروهمهم، ونقف عند هذا الحد والله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد: علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: يا لاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدها والثاكلة لواحدها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من سرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قاياز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجري مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هارين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: يا أبطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل، حلقتة

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابع العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية^(٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الإسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلا النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم، فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو وبعد المسافتين، وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم إلى خيمهم على ما قيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الواقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى خيم العدو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصر والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو، ولقد لقيت انساناً عاقلاً جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينبج منهم أحد إلا من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليك من ذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم لسمع منهم حديثا في سؤال الصالح لضعف حل بهم، ولم يزل العدو من حيثئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الواقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساء الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاین هناك مصارع الأعداء، ومشاع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولما عرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعروا، وفروا وفروا، وقد بقرت بطونهم وفقت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قاتلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرتناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعدة، وحكي من نوادر هذه الواقعة أن فرنجيا عقر فجشا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده، فنزل بحده مستنفا في جده وقاتل ذلك الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتلاأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد مالم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى أولئك الصرعى بتلك المروج، وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ما أقرنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه النصر أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بها جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يشبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندھري، ففرق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل، وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحول السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أول شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبدوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحشوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكنتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا إلينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّة، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأمانى، ونال

من الشدة، ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع، ويموت بما به كاده، وأنه قد بلغ في أذاه اجتهداه، ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا، فأجيب في ذلك إلى مراده، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده.

وقال القاضي ابن شدّاد: كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسله ومكاتبه، وكان وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الاسلام، وشاهده جمع كبير من التجار، ورقى الخطيب المنبر واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فأقام مدّة ولقد شاهده يبلّغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ، وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاته إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تنمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بالفاظه.

وقد عبر العماد عن معانيه فأغنى عن ذلك، ثم قال: وكان من حديث ملك الالمان أنه بعد أن استقرت قدمه في أنطاكية أخذها من صاحبها وتحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره، وكان له أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحو عكا في جيوشه، وجموعه على طريق اللاذقية حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدّهم بأساً وهو الأصل في تهيج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان؛ وجنوده فلقبهم المركيس لكونه أصلاً في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفاً من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بهائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في أعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسرّاً وقتلاً حتى أتوا طرابلس،

فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجئوا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لا يبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مراكب، وسار الباقون إلى صور، ثم وصل إلى عكا في نفر يسير في سادس رمضان، وكان لقدمه وقع عظيم عندهم، ووصل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها، ومرافدة العسكر النازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهم في كل وقت، مفوضاً أمره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببه من نفذ إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى إذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأمله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ بيروت بطسه، وعمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسه بيروت جماعة من المسلمين، وتزيوا بزي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: نحن نرد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت والله الحمد، وكان فرجا عظيما فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش، وهو والي البلد والمقدم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير (فأسرها يوسف في نفسه ولم ييدها) (٩٥) لخاص ولاعام خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو فتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع

ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية، ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فنيت الأزواد، ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يشته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب، والله يدفع عنها والريح تشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقى الأمطار عن جذب، وامتاروا بها فيها، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كان السلطان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد إعواز الأقوات، فافكر فيما يتعجل به الغرض، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامة فجهز بطسة كبيرة، ملأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحى اللحى، ممسوخى الحلى، وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبانا، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم، وأربعمئة غرارة غلة، وأحمال من الشباب والنفط، ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، وإلى محادثتهم

- ٨٧٣٣ -

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: بماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّ فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها، وقربت من سفينة. فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلا الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد: ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعا، ويبيدي به نفعا، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت التوهاد والربى، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيوف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد: «قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المؤلفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامثالاً لأمر مركيسهم وغيره لمتعبدتهم وحمية لمعتقدهم وتهالكوا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولا يطلبون مع شدة الاملاق مالا، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبي تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدريين الصبر مثبتتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبها بقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الألمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدة منهن بين القتلى، وما عرفن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لا منكح له ولا مطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم: إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولدا، فهذا شرح هؤلاء وتعصبتهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجعون ولا يصبرون، بل يتفللون ولا يجتمعون، ويتسللون ولا يرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وإن الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذي هو شذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنایع الغريبة، ماهال الناظر إليه وخيف على البلد منه، فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدد على مثال السكة التي يحرك بها، ورأس الكبش مدور هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا، ومن الستائر والسلام الكبار الهائلة، واعدوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور،

وتواترت حجارتهما حتى أثرت فيه أثرا بينا، وخيف من غائلته فأخذ سهما من الجرح العظيم، وأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه، واجتهد العدو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلك، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقتة، واشتدت ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال في إطفائهما، وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال: «ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها، يعني نوادر ماجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتبا للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوليه، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتا غريقا فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب، ومشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فمارؤي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقدر الله له أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى— ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجهلة محتملة، فوجد في عكا ميتا قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

فصل

في احراق ما حوَصر به برج الذبان وتحرّيق الكبش

قال القاضي: وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخر على باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو، فأراد العدو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملأوه حطباً ونفطاً على أنهم يسرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك ما فيها من المير، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ما أرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتداً حيث كان الهوا مسعداً لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهوا عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصره دين الله والله الحمد، وكان يوماً مشهوداً.

وقال العماد: وعند مينا عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو في حراسة المينا عظيم الشأن، وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها، ومراكب عظام الآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبردبروه، وأحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه، لا يطاوله طود ولا يباريه وقد حشي حشاه بالنفط والخطب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفاته، ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الأخشاب والستائر مابه التصق، واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدها عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الخطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمل عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتوى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتح للعدو في الكيد له باب.

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن: «ومن حديث هذا البرج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقلا كأنه سلم، وهو في مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قرب إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه في تجاوزيفه، وتعبوا في ذلك أياما، وأشبعوه توثيقا واحكاما، حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط، وتوالت امطار البلايا من الجروح والمنجنقات على أولئك الرهط، ثم عمل الفرنج برجاً عاليا في أكبر مركب وحشوه بالخطب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعد فيه الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروح والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل^(٩٦) فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ما كان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أ حسن أيام الاسلام، ووقع على العدو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رحمين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت^(٩٧) الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملئوها

بالكمة والرماة وسحبوها وقربوها فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها
بالبلاء الأفظع، وقالوا: ما في دفعها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها
مجانيق، ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق، فأبعدت رجالها من حواليتها
ثم رموها بحزم الحطب حتى أحرقوا ما بين القرنين، وقذفوها بالنار فباتوا
يطفئونها بالخل والخمر وقد تمكنت النار من أضلاعها، ثم خسفها
المنجنيق وخرج من بالثغر فقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ماتحت
الرماد من العدد بالنبش، وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار، وعلم
الفرنج أن أعمالهم حبطت، وآمالهم هبطت، وكان ذلك في ثالث عشر
رمضان، وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والأجد صاحب بعلبك،
وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعزالدين بن المقدم والامير حسام
الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث آخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيخ حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقى الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو، فغنمها المسلمون، وكان العدو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقى الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج إلى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيحاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمننا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل، وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياماً يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، جواداً سخياً، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الأشياء والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وما أغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان^(٩٨)، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل ما في يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقداً، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجييت رغبته، وأصبيت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاءه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه ما استعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه: «لا شك في إحاطة العلم

بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩) فما أفجع القلوب بمصابه، وما أنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت المهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي بדרه التمس سراره، وأصبح في ضمير البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني مذ سبعين عاماً، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا احكاماً وإبراماً، وما رأى أن يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه.

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متولياً منذ سنين أعمال ميفارقين، فطلب من عمه تفويض كل ماوراء الفرات إليه والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال : ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السامة، وضجروا من الإقامة، وأما عماد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساء ارتحاله، وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلاً، فردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملثا الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعة كتب إليه: «إنك أنت قصدت الإنتهاء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وأويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفدت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدينة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»، وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريباً من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولا تعلم غائلة هذا الأمر، فقال: ما يمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أحد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلي من يديه

فليت شعري ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلا في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصابة بعد عصابة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدا، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقري إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتنال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديته، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتها وتفقدتها في أشنيه القدس العظيمة الجليلة الثلجة لا يؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادةتها، والمرة أقرب تناولا من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشدة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولا يقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق، ولا يطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقاً لا اتفاقاً، ولا يكره المولى أن تطول مدة الإبتلاء بهذا العدو، فشوابه يطول وحسناته تزيد، وأثره في الاسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها، (والعاقبة للتقوى)^(١٠٠) (ولينصرن الله من ينصره)^(١٠١) والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه وبولده، وبخاصته، وبعامته جنده، وبالأعداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فرجح والحديد يفلح، وأكد ما قبل به العدو سلاحه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب.

ومن كتاب آخر: « المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، لطف الله بقلبه، وحمل عنه، وروح سره، ووصل الراحة به، ونسأل أن يرجمه لنا الذي رحمنا به، فقد بلغت منا الحناجر القلوب، وقد وقفت في طرقنا الذنوب، وبيننا نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شعبان فقال: « وبيننا نحن نعتقد أن البطس في عكا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويوم وصل الخبر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي بلقية، كأن الريح في بيت ماخرجت منه من هاتين الجمعيتين، ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة، والأيدي مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فمن شبع في هذه الأيام فما وصى المسلمين، ومن نام ملء عينه، فما هو من أخوة المؤمنين، والمملوك شفيق على البطس في وقت الدخول حذر أن يعترض العدو طريقها، فيحول بينها وبين الوصول، فينكس المراد بها، ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف

ما يحدث من النعمة بالفرج المسير فيها، وأكد هذه الحال في نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها، فالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحانه أن لا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى وبقي ما يفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوماً، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيام، والله يمولانا ما تنجز شيء من هذه الأمور إلا بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجارة وينبه النوم، وتبج الأصوات من التذكاء، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقد كانوا اذا عدا قليلا

فقد صاروا أقل من القليل»

ومن كتاب آخر: «وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة، والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر، وحاجة المولى من الانفاق إلى ما لا يسعه التدبير، ويضيق عنه الامكان، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه وضياع فرصة، واختلاف رأي بين المتشاور من الجماعة، وجود الألسنة بالآراء، وبخل الأيدي بالمعونة، وانفراد المولى بالتعب، واشتراك الناس في الراحة، وما ابتلي به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذراً في القعود، وكتمه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس، فهذه الأمور وإن كانت شذائذ، وزائدات على العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر، ليشعره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا

يباشر النصره ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:
نحن الذين اذا علوالم ييطروا
يوم الهياج وإن علوالم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه الممالك قبل المولى لآبدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم)^(١٠٢) وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)^(١٠٣)، واشتدّي أزمة تنفجعي، والغمرات تذهب ثم لا تجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب».

ومن كتاب آخر: «يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرمًا، ودينًا، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاية فاشكر الله، ولا تحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لا يريد العوض منك إنما يريد من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الإشارة إليها خضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وما عملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأساطيل إن الله آخذ بيد الكريم،
والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان:
مابين حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله،
وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر» وما
في نفس الملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا ، فإنه
بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.
بنامعشر الخدام منابك من أذى
وإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي»

ومن كتاب آخر:» إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا
عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من
أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به فلا يستخضم أحد إلا عمله ولا يلم
إلا نفسه، ولا يرج إلا ربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأصول أن
تحصر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه
يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، ولأننا آمن أن يكلنا الله
إليها والنصر به، واللفظ منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه
من ذنوبنا فلو لا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل،
وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا
في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم
قال:»ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه
الطاهرة، ونظرته المطرقة، وصفحته الحية، وسكون حركاته الموزونة،
لخلع عليه فؤاده، ووهبه عينه ورقاده، ولقد يرد المولى عرصات القيامة
وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيماننا
صبره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيماننا أسلى عن ذلك الملك
لعظيم».

ومن كتاب آخر: «وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خوراً، وإنما يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حد، والاقدار الالهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما يذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)^(١٠٤) يامولانا أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر ولم يسهل، ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره وحفظ قبلة موحيه إلا أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبوّة قرابه، ومن له المملكة وراثه، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامك، وكسلهم ونشطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم، وبغضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسيرك، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)^(١٠٥) نعم و أخرى أهم من الأولى انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض، وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر ماتأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لأموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم (مهطعين إلى الداع)^(١٠٦) ساعين في أثر الساعي (وهم من كل حذب ينسلون)^(١٠٧) ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله: ولست بملك هـ ازم لنظيره
ولكنك الاسلام للشرك هـ ازم

هذا: وليس لك من المسلمين كافة مساعدة، إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالاجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشتري منهم الخطوات شبرا بذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنها تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم
الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن
تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك،
فقائل: لم لا تتباعد عن المنزلة، وآخر لم لا نميل إلى المصالحاة، ومتندم على
فائت ما كان فيه حظ، ومشير لمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي
عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكانها طليعة الجيش، ولا
قفل الدار، ولاحرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد
الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك
الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.
ولكن مولانا صفيحة وجهه

كضوء شهاب القابض المتنور
قليل التشكي للمهم نصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطل، ولكن قد اتسع المجال، وما مراده إلا
أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن
بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم
من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يتغير لمولانا أبقاه الله وجه
عن بشاشه، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنه، ولا ترى منه
ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج
 ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا
حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم،
ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما:

شربنا بكأس الفقري وما وبنا بالغننى
وما منها الاسقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى باحساننا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمع بأن مولانا عز نصره على ما يعهده من سعة صدره، أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره وياليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيئا من مشاهدة الحروب، فقد شبننا والله من سماع الأخبار، أو غرما يمكن خلفه من الوفرة، فقد غرمننا في بعد مولانا ما خلف له من العمر، أو مرض جسم فخيره ما كان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشد المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر: «المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى فيروحه ولا يحمله ويشغله بما يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم أنه لا توفيه رواتب الحياة اشتغل قلبه، واستطار لبه، وضعفت نفسه، فيحسب المولى من جهاده تفقد جسمه، وآلات مطعمه، وترويح خطراته، فقد بلغ من حمله على نفسه ما يخشى على مولانا الإثم فيه، وإنما نتجشم كل مشقة لتسلم منه، ونحن في ضرر قد مسنا، ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلى به، وفي طوفان فتنه، (ولعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) ^(١٠٩) ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، والله قدر لاسلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) ^(١١٠) وقد جمع العدو لنا، وقيل لنا اخشوه فقلنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) ^(١١١) متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنا إلا الاستعانة بالله فما دلنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له، وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرع إليه (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) ^(١١٢) ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فانه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه، ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قصد من تمضي أقداره بلا حيلة، سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم

قد بذلوا المجهود، فقد عذرهم فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد
ذخروا قوة وقصروا في نصره كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر
المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداواة
مزاجه وبر القلوب الإسلامية وبر جسمه، (وإن كان كبر عليك
اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (١١٣) والمولى
أولى بهذا البيت

لا بطل إن تتابعتم نعم
وصابروا في البلاء محتسب

قل للملهب: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولا بد
أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لأراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من
قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو
ساخط موزور، فيصطلي نار الشدة أعاذه الله منها، ولا يحجد راحة
الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكأ بثه وحزنه إلى الله شكأ إلى
مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة
ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي
لا تشتد إلا به، ولا يضيق صدور الأتفرج إلا منه، وما شرد الكرى،
وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا
ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم
مولانا المباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا رب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا
بصاحب الأمر، وأنه لا يقللهم إن كثرت الفكر.

قد قلت للرجل المقسم أمره

فوض إليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانيا بعد أن أسلم، أو بلدا
يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا هذه الليالي التي رابطت فيها
والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيها: يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة، ومحملات محضرك (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) ^(١١٤) وهي مجوزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما ركبت، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق، وقد عرف ماجرى في سير الأولين وفي أنباء النبيين، وإن الله تعالى حرص نبيه ﷺ على أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم، وماتغلو الجنة بثمر، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ما قد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق، ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك مالميس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقغ في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وكفى خطبة (وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) ^(١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها، وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته، فهناك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافي، ويرض عن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فتنة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بالسنتهم، (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦).

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر، ويقول « ما اخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها » فكتب اليه الفاضل : « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقوفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت ».

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتد أمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر ، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما ، غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أرسله لأجله ، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها ، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقة بخطه ، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه .

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر إلى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين ، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير إلى المغرب ، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة ، صفوة الملوك والسلطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص أدام الله توفيقه ، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده ، وحرس مغيبه ومشهده ، وأسعد يومه وغده ، يستخير الله سبحانه ، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، وما يحبونه من القول نزره أو جمه ، ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضه ، ومن القعود ، مجالسهم مخففة أومطولة ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ماصيغته وماموقعه ، وهل هي السنن الدينية ، أو العوائد الملوكية ، ولايلقه الا بها يحبه ، ولا يخاطبه الا بها يسره ، والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم لتعلم. ماخوطب به ، والمقصود أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وما أزلنا من البدع بها ، وعطلنا من الإلحاد فيها ، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة ، وعقد الجماعة فيها ، وغزواتنا التي توصلت إلى بلاد الكفار من مصر ، فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا ، ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا ، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا ، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ، وتلك على الاسلام منة الله العظمى إلى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والأسر لهم ، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها ، ومنعتها وغناها وثروتها ، ومسارعتها ومبادرتها ، وإنه لايمضي يوم إلا عن قوة تتجدد ومبرة تصل ، وأموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل وإن ثغرنا حصره العدو ، وحصرنا نحن العدو ، فها تمكن من قتال الثغر ، ولا تمكن من قتالنا ، وخذق على نفسه عدة نخنادق ، فها تمكننا من قتاله ، وقدم الى الثغر أبرجة أحرقها أهله ، وخرج مرتين الى عسكرينا فكسر العدو الكثير أقله ، فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة ، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم ، فقتل الله العدو القتل الدريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها إلى مصارعها ، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابرز صفحته لكان باذن الله هو الملبور المكسور ، وتذكر مادخل

الشجر من اساطيلنا ثلاث مرات ، واحرقها لمراكبهم ، وهي الاكثر،
ودخلوها بالميرة بحكم السيف الاظهر.

وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى ، ونجدته
تتواصل، ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموا قناطيرها
مقنطرة ، وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول
إلى انطاكية لتلف وهلك ، وتذكر أن الله قصم طاغية الالمان، وأخذه
أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار
الآخرة ، وإن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع
بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أو برز فأخذنا
بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي
ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير
كارهة، فالبدار البدار ، وأنت أيها الامير فيها أول من استخار الله وسار،
وإن كانت دون الاسطول موانع إما من قلة عده، أو من شغل هناك
بمهمة أو بمباشرة عدو إما تحصن منه العوره، أو قد لاحت منه الفرصة،
فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انواعها محصورة ،
تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤا
لانجادنا ، ومحقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجنب ، فلم
ندعه إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطبق له ، فقد كانت
تتوقع منه همة تقدر في الغرب ناراها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس
في العدو القصوى شجرتها فينال من في العدو الدنيا جناها، فلا
ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما
اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره، والجار أقدر على الجار ، وأهل
الجنة أولى بقتال أهل النار، ولأنه بحر ، والنجدة بحرية، ولا غرو ان
يجيش البحار البحار، وإن سئل عن المملوكين بوز با وقراقوش وذكر
مافعلا في اطراف المغرب بمن معها من نفايات الرجال الذين نفتهم
مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معها ليسوا من وجوه

الممالك والأمراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء وانما كسدت
سوقها وتبعتهما ألفاف أمثالهما ، والعادة جارية أن العساكر إذا طالت
ذيوها ، وكثرت جموعها ، خرج منها وانضاف اليها ، فلا يظهر مزيدها ولا
نقصها ، ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غاب أحضر ، ولا ممن إذا فقد
افتقد ، ولا يقدر في مثلها أنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي بها يوجب
شكوى من جناية ، ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الأرض ، ان
أريد الاصلاح ما استطعت ، وان سئل عن النوبة المصرية وما فعل
بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار وأطمعوههم في تسليم
الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شديد ، وكاد يقرب على الكفار كل أمر
بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين ، فقبولوا بما يجب ، وكانوا
دعاة كفر وضلال ومحاريين لله بما سعوا في الأرض من فساد ، فأما بقية
الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم
على أن لا يكونوا جندا ، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملتة أمنة
تسكنه ، وأما الهدية المسيرة على يد الأمير فتفصيلها يرد في كتاب الأمير
الاجل الاسفهلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة ، أدام الله علوه ،
مقرونا بالهدية المذكورة ، ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة
والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يخلق البحر انفتاح الأشتية ، والله
سبحانه يوفق الأمير ، ويسهل سبيله ، ويهدي دليله ، ويكأله بعينه ،
ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله ، ويشرح له صدره ، ويسر له
أمره إن شاء الله تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقوى الطاهر، ومستقرّ حزب الله الظاهر من المغرب
أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب

أما بعد : فالحمد لله الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بالبرية ،
الحفي بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى
من أهلها من سألته القرض ، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة
والفرض ، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض ،
وصلى الله على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتيان ،
وبنى الاسلام بأمتة التي شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه
الذين اصطفاهم وطهرهم ، فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه
وسلم فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ، ثم السبيل يسرهم ، وإن
الله بهم (لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم) ^(١١٧) (ربنا اغفر لنا
ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا
انك رؤوف رحيم) ^(١١٨) وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة، الواجبة
الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على
دار الملك ومدار النسك ، وجل الجلالة ، وأصل الاصاله ورأس
الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين
وقيمه، ومقدم الاسلام ومقدمه، ومقتضى دين الدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحددين ، أدام الله له النصره، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرة وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفه، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفًا حفيًا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطئا وأقوم قيلًا) (١١٩) ، تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناءة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقيّل والمعرّس ، ومافتح الله للاسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، وماأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار، وكنز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار) (١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللإسلام معاقر، ولبنى الكفر مصانع، ولبنى الإسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشيبا وشبانا، وزرافات ووحدا، وبرابرا وبحرا، ومركبا وظهرا، وركبوا اليهم سهلا ووعرا، وبذلوا ماعونا وذخرا، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على اسمائها، واثت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقاءها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج، ومنهم من ركب ثبح البحر فركب الاجاج العجاج، وامتطى من البحر مشية الرجاج، لينصر دينا مشبه الزجاج، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ما بين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة، ونقدي ذهب وفضة الى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل، وتخلف من الزاد ما أكل، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادة، وقد هان عليهم موقع الحصر، وأعطاهم البحر مامنهم البر، ويطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لا يستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده، ويصل الى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وازواده، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادة عكا من البحر، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخذقوا على نفوسهم، وحشوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة، فكأنهم قبل الممات يعودون، فاثمنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها، فنفذت عمارتنا الى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالا يحملها الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد سراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدو محاصراً للثغر محصوراً منا أشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر، لأننا من خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفاً من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سور وخنق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من خيمننا ، ويخرجنا من خيمننا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ، متوعراً فيها محتجزاً عن لقائها مظهراً أنه صريع داء ومابه غير دائها ، وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شبيهة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقاً، وخاض الماء فخاضه الماء شرقاً ، وبقي له ولد هو الآن المقدم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحر تهباً ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الالمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعاً ، ولكن لله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجاج مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصر الكبرى بحول الله ثاب لا يثنيه من العدو ثاب ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجهه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعيه سلفه في الجهاد الغر المحجله له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكله، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معاملة وعامة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغمارها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها ، لا يزال في سبيل الله غاديا ورائحا ، ومواجهها ومكافحا ، ومما سبى ومصاحبها ، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة ، وغزاة تصافح وجوهها السيوف ، فلا يحمد نور الأسرة بذود الفرق الكافرة ، ولو ترك سبيلها لملا قراره كل واد ، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) (١٢١) ولولاه لأخذ شرارة كل زناد . كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما امد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام ، ومدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا ، وتطلع على الكفار آجالا ، وتردنا إما جملة وإما أرسالا ، مسومة تمدها ملائكة مسومة ومعلمة ، تقدم حيازيمها لإقدام حيزوم تحت أصحابه ، وإنما هي منه عزمه ، كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة ، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ، ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح ، وقد ينزل النصر فلا تظهر إلى أن تضرع إليها السنة الصفاح ، وسير الحضور مجلسه الأطهر ومحله الأنور ، الأمير الاجل المجاهد الأمين الأصيل ، شمس الدين نور الاسلام والمسلمين ، سفير الملوك والسلاطين ، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ ، كتب الله سلامته ، وأحسن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا من هو أهلها ، ولا حمل الوديعة إلا من هو محلها ، ولا بعث لنهج الصلة إلا من هو مفتاحها ، ولأداء الامانة إلا من هو أهلها ، ومهما استوضح منه ، وسئل عنه ، فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة ، وفي العربية ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له أوصف ، على أن تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف ، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطة ، ونظرا يأذن له في القول على اختصاره ، وتوسطه وافراطه ، فكل هو به واف ، وكل هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة

مبلغا يسر أ هل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلهها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ما وفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخطرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة الله وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء الله تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة، والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمناء. دهان بلسان مائة درهم واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووصل إلى طرابلس أول البلاد في الخامس والعشرين من شوال، وأقام بها إلى ذي القعدة، وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته، وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمر المؤمنين على جاري عاداتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشرعية غازيا توفي في سنة خمس وتسعين ، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحاً ومختماً ومتوجاً
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الريح تارجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه
وراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصركم الريح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومى الأصبع
ان كنت تتلو السابقين فانا
أنت المقدم والخلائف تبع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحرأذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما للنعماء ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى
إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المسلمين ولم تنزل
إلى بابك المأمول تزجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا
بأنى بذاك القطع بالنجح كافل
فما راعني من وجبة البررائع
ولا هالني من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالي طلابه
يهون عليه كل أمر يحاول
رجوت بقصديك العلى فبلغتها
وأدنى عطايك العلى والفضائل
فلا زلت للعلياء والجود ثانيا
تبلغك الأيام ما أنت آمل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ما وجدت بخط
بعض الثقة :

تصرم عمري في التغرب والنوى
وأفنى ارتحالي طارفي وتلاذي
وأخلقت الأيام برد شبيبي
وأصلد من وقع الخطوب زنادي
وأشغلني الحرص الموكل في السورى
عن العمل المنجي ليوم معادي
فلا راحة الأخرى تيقنت نيلها
ولا أنافي الدنيا بلغت مرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميص دعاني إلى احـ

تمال الرثاثة منه العدم

أقرب وجهي لله كلما
تهلل لي ضاحكاً وابتسم

ومن كتاب فاضلي الى بعض اخوانه : « وأما الاخبار المغربية وإخلال جانبها ، وضعف مطلوبها وطالبها فإذا نجزت الظلماء الى المغرب فبحق، كما ان الانوار الناصرية قد تناصرت في الشرق ، فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن من مؤمنها حكم عدالته ومن كافرها سيف فتكته ، والله يجزيها الخير عن نيتها في الخير، ويكتب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يمتت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل ، ولا هو مختار لها. صورته: «المملوك يقبل الارض بالمقام العالي المولوي الملكي الناصري ، جعل له الله في الدنيا والآخرة المقام العالي، وأبقى دولته التي هي الايام بالحقيقة والايام قبلها هي الليالي ، وينهي ان الظاهر ان المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام، وان له ولله الحمد اثارا في دولته تشهد بها الايام، واثار السيوف طاحت وبقيت اثار الاقلام، والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها، ولا كارها لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريبة منها، لكن على وجهها ، وقد نجزت الهدية المغربية على ما أمر به، وكتب الكتاب على ما مثل ، وفخم الخطاب والوصف فوق العادة ، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه، وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فافوضه المملوك في أنه لا يمكن الا التعريض لا التصريح بما وقع له أنه لا تنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلا ، ولا احاطوا به قياسا ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديما، وآخر ما كتب في أيام الصالح بن رزيك فخطوب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولي عهده بالامير الأصيل النجار، الجسيم الفخار ، وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي

اتباع مولانا اليوم مائة مثله، مترجمة بمعظم أمره ، وملتزم شكره ، هذا والصالح يتوقع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، وماهو الا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده، ويصل المشار اليه بالامر من مراکش الى القيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسرا مرة، ويتماسكا أخرى، واعلم الامير نجم الدين بذلك فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لا يستصحبها ، وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه، وان الكتاب لا يأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين ، وان السلطان عز نصره رسم له ذلك ، والملك العادل دامت قدرته بأن لا يشير الا به ، وانه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ابقاه الله من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ، شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته، فتفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار ، بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الاحوال، فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده، فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل مانأخذه ثمننا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال: أنا أقضي اشغالي وأتوجه إلى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره ، ومايفوت وقت وإلى أن أنجز أمر المركب ، وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ماكتبه، ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا وهو: الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه، واذا كتب الصالح ابن رزيك اليهم من السيد

الأجل الملك الصالح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملوك ، والمؤمن لا يذل نفسه، وقاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يده ، وان كان مولانا أعز الله نصره يقول: أنت غافل وغائب، وماتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ماشقت الحديث ، فجواب ماتكتب: بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بالله ، واذا كانت لنا إن شاء الله أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته، واذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحوال المملوك غائب عنها ، فالمفهوم من الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان عز نصره من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لا يخفى عنه خبر ولا تقال به عشرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابه الى المملوك ، وفيها ماهو بخط حضرة سيدنا الاجل عماد الدين الكاتب الاصفهاني حرسه الله تعالى لماوصى بأن لا يناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واما استهانة بنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك ، فان كان ولا بد فالنسخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم ، والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون، وقد ناب المملوك عنهم، والكتاب الذين يستقلون بالتبويض موجودون فينوبون عن المملوك في التبويض ، والافكييف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، وبغير حضرته كتب ولا يهديه سار، وبمحضر من البغاددة والمغاربة يعلمون أن الكتاب كتب بمصر ، ويشهدون بما لم يروه وما لم يقرؤوه من الخطاب ، ولو وصل من المولى ادام الله أيامه كتاب . مختوم وسير ولم يعلم ما فيه لانقطع فضول كثير وحدث أراجيف شنيعة، ولا يعتقد المولى أن المملوك يعظم القصص فما للألسنة والاعين

شغل إلّا السلاطين وأفعالهم وأقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في
أوامرهم وأحوالهم، ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره
بحيث ينفع المولى أبقاه الله لهان عليه، ولكنه مضرّة بغير منفعة ،
وتعرّض لما تدم عاقبته، أو يبقى على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه
حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصود المولى إبقاء الله تحصيل تبييضها
بين يديه ، وربما حصل استنارة، وامنت المكارة فيه، وغمضت العيون
عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب آخر ما يشرح لنا بعض ما تقدم ،
ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد،
غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب
الذهب الحار فيضرب في حديد بارد» ومنها فيما خرب من البلاد
الفرنجية المغنومة: «خرب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته
لنفس العدو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من
بديهة اليأس ما يقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في
تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهذنة مرة أخرى وبالقتال
مرات، وبولاة سوء لو كان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا
عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدو يريد أن يحاصرها
وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوة
الاسلام أن تشوب اليها، ويتوقع أن ييدهه المصاف قبل النزول عليها ،
فعرّفناه أنه قادم على من لاسلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد
إلا أن يخرّبها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة، وزدنا زيادة
عجبية وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد» ثم قال:
«وثبت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوة نفس من بها، وأهون
الاعداء ملك الألمان لا يشك مولانا أن جمعه لا يفي بعشر قراقر من ستين
قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ،
وانما الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد
كبا كالجبال

ومنها عن ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعافيته من مرض عرض له
في شهر رمضان: «أسفرت بشارته عن أن المولى آتاه الفرج وغداؤه
الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان
ما في كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر

ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريفة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم إلينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ما أوجبه المملوك إلا لمسرتة بعافية المولى أدامها الله ، وأدام المسرة بها له وللخلق فما يشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى الله الدنيا من آثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدو ، فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا الله بهذا المرض سيف الله الذي هو المولى وما صقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومن فوائده هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، وأعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها: «وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى الله عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله إليها ، ولمعالي الأمور أعانه الله عليها، وإذا عتد ما يراود منه فلا بد أن يعدد ما يسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا، وهل أصبح إلا راضيا ،
ألا يعلم أن الله تعالى ذخر له من الصالحات ما لم ير كفؤا له غيره، ألا
يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من
الآخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل الله إلا رايته، وهل يعرف
مال ينفق في سبيل الله إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله
يتلى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرأ ، أو يرى به إلا الخيل
تعرض، والسلاح يقلب، لا أقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين ، ولا
وقائع الكذابين ، ولا سعايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مولانا أبقاه
الله على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن
مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كل مسجد، ولا غرو أن تعترف
المدائح كما تعترف الضوال ، وإن تتبع كما تتبع الطرائد، (ولينصرن الله
من ينصره) (١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب
أنطاكية خذلة الله عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن
وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون—بمشيئة الله ما هم فيه من
جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى اللجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق،
فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد
بسببه ، فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام
برعاياهم فأقعد ما يروعههم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته،
ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم
مكان بسم الله من الكتاب، ومكان الامام من المحراب، ومكان
النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل، وخير
ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا ، وأغير ماكان على محارم الله إذا
كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن الله سبحانه
قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها ،
فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه الله إلا ان الاسلام قد رضي بها يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميّه على نبينا وعليه السلام (قضي الأمر) (١٢٣) فأما ملك الألمان فقد سلبه الله ما أضيف إليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب، واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال ابقاه الله قد قبلت البشرى، وصورة الرؤيا أن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال: أكتب كتابا ببشارة ملك الألمان، فقلت حتى أفكر، فقال الرسول اكتب بأن الله قد سلب ملك الألمان ما أضيف إليه، والمشهور أن ملك الألمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة آلاف.

ومنها: «ورد كتاب من المهدية إلى الاسكندرية ثاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية، وذكر من فيه أخبارا، وقد طولع بها، ولما تكررت علمت صحتها، وهو أن عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة، وقد افتتحت عدّة حصون كافرة، وأن بوزبا شوهد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذ قراقوش الى صاحب تونس ليسيره إلى بلاد الاندلس، موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر، وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجهام ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية، والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة، نصر الله كلمة التوحيد، وأهلك كل جبار عنيد، وإن مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها، فباعته بها وتزودت منها، وانها قاصدة الشام خيب الله قصدها»

ومنها «وقد سير الحمل الآن من المجلس العزيزي بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لا يطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الانفاق، ويقدر الاخراج للعلم أن هذا الحجر قد رمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فإنهم فراروا من سطوة كرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع اسفارها،

ووقوف معائشها، وكساد أسواقها، وانكسار تجارتها، ولولم تكن الدراهم سلعة لا تخرج من مصر كما يخرج الدينار، لما وجدت كما يوجد الدينار، وإن تصريف الدراهم بعد أن يصير مستخرجاً بذهب شغل شاغل، واستخراج ثان غير الاول، وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده يحدث للاسلام نصراً عزيزاً، وللکفر خذلاناً سريعاً وجيزاً.

مولانا خلد الله ملكه من وراء ضرورة لا تخفى عن المملوك، والماليك من وراء ضرورة لا تخفى عن المولى وصدر المولى بحمد الله واسع وفرج الله منه قريب، وهذه الضائقة لما يريد الله تعالى من حسن موقع الفرج بعدها، فقد انفق المولى مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل، وينفق ان شاء الله تعالى مال القسطنطينية في فتح رومية، والمملوك كلهم وكلاؤه وأمناءه على خزائنهم إلى أن يسلموها إليه فيشكره الله على ما أخرجه في سبيل الله منها، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه، فإن الله سبحانه لا يضيق رزقا على يده الكريمة، لاسيما وقد أجرى عليها أرزاق خلقه»

ومنها» ينهي المملوك وصول رسول ملك الروم بها في صحبته من هدية، وبها على لسانه من رسالة، وبها على يده من كتاب، وحضر بين يدي الملك العادل وجرى من المفاوضة ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حرب السلطان، وإطلاق طريقهم، وامتنع وسدّ الدربندات، وحفظ عليهم الطرق، ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم، وجعل موافقته أن البلاد في هذه السنة غالية السعر، والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة إلا بقوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخرى» ثم قال: «وهذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده، مدافع عن نفسه إن تم له الدفع ادعى انه بسببنا، وإن لم يتم

ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدا، وقد جعل ماورده من أن يقال ان البطارقة في قمامة من قبله، وان ينقل من ولاية الفرنج الى ان يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يبسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه ، ويدفع به عن نفسه لاسيما مع إقامة الخطبة الاسلامية ، ونقله المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلامية ، أرغم الله بها أنفه، وعجل بسيفها حتفه، ومولانا ابقاه الله يتثبت في الاجوبة ، ولا يجيب الى ما على الاسلام فيه غضاضة ، ولا الى ما للكفر فيه قوة (ان ينصركم الله فلا غالب لكم)» (١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرس اليه يخبره بعصيانه على ملك انكليز ومكاشفته بالعداوة والحرب وانه قد كاتب السلطان أعز الله نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكليز ، والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة ان مولانا يتقبل من المذكور ويقوي نفسه على هذه المباينة فان في تخاذلهم نصره الاسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعا للميرة عن الشام وامنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديق، وماسمي العتيق إلا لانه صار لمولانا عتيقا، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية في انا ننجاه على قبرس، فانا انما وعدنا بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، والله يعصمك من الناس.

وقف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذي ندب لأجله الرسول ما ألم بذكره في الكتاب وهي المعونة على الجهاد ، وعرف استدعاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيت في يد من هو الآن بها لكانت في يد المولى أبقاه الله

تعالى، ومهما خرجت عنه خرجت عنها، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيما وهي طريق الى غيرها، وقد فتح الله للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثر الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى طرف، وله اهل مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة، وممالك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيره المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه، وما يليق ان يسير الا من يريهم ما يعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على ما يريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولا بد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل، ويستزيد الجعل.

ما تضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده، بالاضافة الى الوقت وإلى عادة أهله آخرهم حجا الرشيد رحمه الله، ويستقر به بالاضافة الى خلته، وان سار صلح ان يهتم بما اشار اليه ابن الشهرزوري، ولا شك انه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها، فإننا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا.

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وان المؤيد، يعني ابن السلطان، وكان ينوب عن اخيه العزيز بمصر، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربهما صحيح وأن أحدهما وهو الصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدثت له خنازير في حلقه، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدته، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربي قد خرب ودثر، واكثر التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنها كانا أنهما مرة بعد أخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بهما، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا: (واعتصموا بحبل الله جميعا) (١٢٥) ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وما علمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافا، فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الألسنة الخائضة، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس ، والكندھري ، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادهما، وكان مخيم اليك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك ، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمته الى الجبل صفا ، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قاياز النحمي، ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهؤلاء عظماء دولته وكبراء مملكته ، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقة الخاصة واقفون في القلب، وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر ، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا ، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا ، وبالدبابيس قضا ، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاتهم ويبوروا ، فماراموا
مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا
على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل محدق بهم كالأسوار
وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يباسطونهم ،
والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكهامة بالكهامة ، وهم ثابتون نابتون ،
ساكنون ساكتون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون
فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وأحس العدو
بالضعف وانه متورط في الحتف ، فالجئوا لعجزهم عن الدفاع الى
الاندفاع ، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ،
والبحر عن يسارهم ، وقد أيقنوا ان صح منهم الثبات بانكسارهم ،
واصحابنا حواليتهم ومن ورائهم ، يغرقونهم في دمائهم ، ويشلونهم
ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم ، هم يتحركون في سكون
ويتظاهرون في كمون ، ويتذوبون في جمود ويتلهبون في خمود ، وكلما
صرع منهم قتيل حملوه وستره ، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم
ولا يصح لدينا كسرهم ، ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا
الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق ، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في
الجهاد بلاء حسنا ، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا ، وبذل إياز
الطويل هذا اليوم جهده ، وفل في هذا اليوم حدهم حده ، وكذلك سيف
الدين يازكوج عام في بحرهم وقام بأمرهم ، واصبحوا يوم الخميس الى
نار الوطيس ، ووصلوا الى مربضهم ولم يحصلوا على غرضهم ، ونقص
منهم خلق ، وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام ، فرحين بذل الكفر
وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مساق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا
من الهلكة وماعادوا الى مثل هذه الحركة.

قال القاضي وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس
بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك احدا يصل اليهم الا بالنشاب ، فإنه
كان يطير عليهم كالجراد ، وخیالتهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً، وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال، وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة، خرخته بياض ملمع بحمرة على شكل الصليبان، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد أجمعهم العطش من شدة الحر، وأخذ منهم وأثخنهم الجراح، وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة في ذلك اليوم فإنهم أذاقوهم طعم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكي عن الاوائل، وجرح جراحت متعددة. وهو مستمر على القتال، وجرح سيف الدين يازكوج جراحت متعددة، وهو من فرسان الاسلام وشجاعانه، وله مقامات متعددة، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم، وعزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية ان يغتالوا فإن العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على اليك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم، فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد، وعاد السلطان الى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلتهم، وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به، وبقي عسكره فعاد وقد اقلعت حماءه وبقي التياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة، لكونه لم يقدر على مباشرة الأمر بنفسه، ولقد رأته رحمه الله وهو يبكي في حال الحرب، كيف لم يقدر على مباشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلاً يقول: إن الوحش قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلاً :
أقتلاني ومالكاً

واقْتلَا مَالَكاً مَعِيَ (١٢٦)

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضياً الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجذب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثّر لهم العدّة، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل، فكمّنوا تلك الليلة، فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحو الفرنج وصالوا عليهم وأغاروا، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمئة فارس، هكذا قال العماد في البرق— وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شدداد مائتا فارس— وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين، فخرج عليهم أسد العرين، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم، فلم ينج منهم ناج، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيّة، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لأخذها، وكانت مقومة بأموال عظيمة، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لاحضار ما يريدون احضاره، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقّال.

قال القاضي ابن شدداد: ولما هجم الشتاء وهاج البحر، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليها سن الشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة .

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل المير والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكائتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع ، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيچاء وأصحابه ، ومن كان بها من الأمراء ، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنة كاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه ، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها ، وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر ، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها ، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهن عظيم ، وخرج السلطان لذلك حرجا شديدا ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دخل الشتاء وعصفت الالهواء ووقع في سفن الفرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم ، وحصل الامن فيه من جانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال وغللمان ونواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج، فرأى السلطان ان يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفة ، وما أفكر ان في ذلك مخافة وآفة ، وأشير على السلطان بترتيب البدل وتكفل العادل بذلك وانتقل بمخيمه الى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل، فمن نجز أمره انتقل ، وكان الرأي اراحة علة المقيمين فإنهم قد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم ونخوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتباع وأشباع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعله انفق من ماله في تلك السنة خمسين ألف دينار ، فلما فسح لهم في الانتقال لأجل الاستبدال انتشر ذلك الضم ، وانتشر ذلك النظم ، ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها، وما ثبت ممن كان مقيما بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخل عشرون مقدما وأميراً شبه المكهرين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن ، وقضي الامر، وتكفل بالداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتاج اليه من الرجال والاموال ، فان كل من عين للدخول

- ٨٧٨٨ -

كرهه وصار يتوسل في ان يعفى ويبذل في نفسه الفداء ، ثم اا حقت
كلمة الدخول على من تعين له استمهلوا زمانا يتهيأون فيه للدخول
ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لا بد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان، وحزن الفرنج على ابن ملك الالمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النيران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجواهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن ارككز، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء، وسلموه الى البلاء، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه ومافارقه ووقعا في البحر وغرقا، وترافقا في الحمام واتفقا، وعلى طريقى الجنة والنار افترقا، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أرادته على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال: وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة، وكان السلطان متشوقا لقدمه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجاؤون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات، والاستشارة في المهمات، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطار ، ثم وصل في ذي الحجة ، ورجع الفضل ، واجتمع الشمل ،
واستأنس الملك بصاحب تدبيره ، وتأسس ركنه برأي مشيره .

قلت: وفي جمادى الاولى من هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة
محيي الدين ابو محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري ، وقد
اثنى العماد الكاتب عليه في الخريدة ثناء كثيرا وانشد له اشعارا حسنة
منها في التوحيد:

قامت باثبات الصفات أدلة
قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت
هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا
بأدلة الاخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد
ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :
لائمى في هوى الصحاح
بـة ارجع إلى سقـر
لا بلغت المنى ولا
نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب اقوا
مهم السم السمع والبصر
وهم سادة الوورى
وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقـر
دم من بعده عمر

- ٨٧٩٢ -

ثم عثمان بعده
وعليّ على الاثر
أيها الرافضي حسبك
فالحق قد ظهّر (١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ،
واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد: والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم
بمخيمه على شفر عم ، ولطف الله به قد خص وعم ، والعاذل مخيم
قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة
السبل ، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار ، ونوب
اليزك راتبه ، ووظائف الجهاد مواظبة ، ووصل من الديوان العزيز مثال
ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال .

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه
شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبله ، واللاذقية ،
وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ،
وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ،
فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان
السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفار على عكا بعد قضاء الله تعالى
الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور
مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة .

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج
بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة
رأس تلف في الطريق منها أربعون ، وغنم أبقارًا وغنما ، وانفذ للعماد
منها بغلة ، وذلك رابع صفر .

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرتة ،
وكان فيه خلق عظيم منهم ، فغرق بعضهم وأسر بعض ، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلة أول ربيع الأول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، واخذوا منهم من خيمهم جمعا عظيما منهم اثنتا عشرة امرأة ، وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج اليهم من العدو خلق ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير، ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه يسمى قراقوش ، وكان شجاعا له وقعات، وفي تاسع ربيع الأول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفاضل وانذر الفرنج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج اخذوا في بيروت، فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرك، فسأله عن مجيئه فقال للحج إلى قمامة ، وبينى وبين بلادى مسيرة اشهر، فرق له واطلقه وأعادته إلى العدو راكبا على فرس، وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن ، وسئل عن ذلك فقال: لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر. ثم لما أقبل الربيع توافيت العساكر وفاء بموعدها، فوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر صاحب قلعتي عزاز وبغراس ، وهو شيخ له رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومرتبة ، والملك الأجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والى دمشق في رجا لهم وابطاهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التدبير، وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ، وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب في عدة من عبدة الصليب ، ثاني عشر ربيع الأول في ست بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي اقدام ، فقلنا ما حمل الماء إلا أهل النار ، وما أجلب للدوابر الا الدبار ، وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا

حضر حكم على الجميع، وما زالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد: ولقد رأيت به وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله ، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم ، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم بالمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حاصر حماه وحارم عام الرملة ، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكزهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليامنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع ما في الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة ، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذا في كتاب القاضي.

وقال العماد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم

أربعمئة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في أثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدو بد من الجواز بها أو بقربها ، وإذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الأتليز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذن لك في الخروج اليه، فأخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعته فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأنته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ، ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهم إنك خلقتة رحيمًا فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين ابن البلنكري، وكان مقدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.

فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها

واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ، فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ، ووصل ملك الانكليز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحقق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ، وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقى فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم ، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مشخنة موثسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً ليسهل نقلها

وقسم ينقلون مايقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنىقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهن من ذلك.

قال: وهذا ابتلاء لم يبتل به احد ولا يصبر عليه جلد ، والسلطان رحمه الله لا يقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن البلد، وصوبوا منجنىقاتهم الى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنىقات ليلاً ونهاراً حتى أثرت فيه الاثر البين، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم، وكبس خنادقهم والهجوم عليه ، ودام ذلك حتى وصل ملك الانكليز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتلة ، وكان السلطان قد امر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً، حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترضها ملك الانكليز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالاً شديداً وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانياً كبيراً فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، قال: والله لا نقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابها فامتلات ماء، وغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير ولم يظفر العدو منها بشيء أصلاً، وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر، وخلصوه من الغرق ومثلوا به

وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً
والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى والصبر على
بلائه.

قال : وكان العدو المخدول قد صنع دبابة عظيمة هائلة اربع طبقات
الاولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة
من النحاس ، وكانت تعلو على السور ويركب فيها المقاتلة ، وخاف
أهل البلد منها خوفاً عظيماً ، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو
وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار
خمس أذرع على ما شاهد ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفط ليلاً
ونهاراً حتى قدر الله تعالى حريقها ، واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة
نار نحو السماء واشتدت، الأصوات بالتكبير والتهليل، ورأى الناس
ذلك جبراً لذلك الوهن ، ومحوراً لذلك الاثر ، ونعمة وايناساً بعد يأس،
وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكان ذلك تسميتاً لتلك العطسه ، ثم جرى بعد ذلك
عدة وقعات في هذا الشهر ، وهو جمادى الأولى، وهجم المسلمون خيم
العدو ونهبوها ، ووصل رجل كبير من أهل مازندان يريد الغزاة،
فوصل والحرب قائمة فحمل حملة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولم
تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدو والشكوى من
ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر
الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكليز الملعون ، ثم مرض
مرضاً شديداً اشفى فيه على الهلاك ، وجرح الافرنسيس، ولايزيدهم
ذلك إلا إصراراً وعتواً، وهرب الى السلطان خادمان ذكرا أنها لاخت
ملك الانكليز وأنها كانا يكتمان إيمانها ، فقبلها السلطان وأكرمها ،
وهرب أيضا المركيس منهم إلى صور، وكان قد استشعر منهم أن يخرجوا
ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيباً مهيلاً ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه ، ويحولون الى قدامه ترابه ، ويقربون الى قرب البلد رقابه ، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويدبون ، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل الجلد ، لاتعمل فيه النار ، ولا يصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم ، ورمي بكل جمرة ورجم ، فما يزيد في كل يوم إلا قرباً ، وما يجر في كل وقت إلا خطباً أو حرباً ، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه ، ويطيّفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ما قطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصراً محصوراً ، غامراً مغموراً قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ، ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار ، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يصور في الدنيا وجوده ، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة

فما يفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقوله اول ، وثالث ما يقوله ثان ، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ان تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخدول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وأونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرايات، وطورا بطم الخنادق وأنا بنصب السلام، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاختشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لا تؤثر فيها الحجارة الرامية، ولا تعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين بزنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ، كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهما من الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها، وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عشرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم، ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم، ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا إلى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين، ويوقظونه ويقولون له بالاشارة: إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بما لاطائل تحته، منها أن ملك الانكليز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت، وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدي، ففهم انه يحتاج إلى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان، ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل إليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشغولون بالحصر وموالات الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف، وتخلخل السور وأهلك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عدد كثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم، وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه: يا لاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وإنما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولما هجم الليل عاد إلى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم

تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبوا غاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه، ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك، ولم يزل الحرب الى آخر الليل، وضعفت نفوس أهل البلد، وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمئهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا، فقال: أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوساً، وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلاً خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقى ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الآخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات، وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاريين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثمانى مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين: «لما عاين أصحابنا بالبلد ما هم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء بمن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم، وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، وماأرهب قلوب الباقيين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيميين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام، وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهداهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب».

قال القاضي: وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكليز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاستبارة يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ولفيفهم، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته، وقاتل قتالا شديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامل البعيد، ولما عرف السلطان أنه لاسلامه، وأن عكا عدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم: خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة، وسيروا الى جانب البحر، وصادمو العدو بالقهر، وخلوا البلد بما فيه وتركوه بما يحويه، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، ولم يعلم ان التهاء به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح، ولم يصح ذلك في الليلة الثانية لمصير السر إلى العلانية. قال: ولو صح ذلك لنجح المقصد ولكن الفرنج اطلعوا على هذا السر، فحرسوا الجوانب والأبواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا إلى الملاعين وأخبراهم بجلية الحال، وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاوله الطعن والضرب، وفيهم صاحب صيدا فطلب نجيب الدين العدل، وكان السلطان يعذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العدل مرارا في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمر على الصواب، وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون من فيها، وأنا نطلق لهم أسرى بعدد

العدة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح : ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال: لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث اعتقد ان ربما كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكروا أنه — يعني الخارج صاحب صيدا — طليق السلطان ، فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال : ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها : إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أما نحن فقد فات أمرنا، وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرد ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهابا أنفقه فيهم وصاحب حمص، واشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلثة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج
العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد
عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة
والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع
مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار، وألفا وخمسة
أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم،
وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين وماعمهم من
الأموال والاقمشة المختصة بهم وذرايرهم ونساؤهم، وضمنوا للمركيس
الملعون. - فإنه كان قد استرضي وعاد - عشرة آلاف دينار، لأنه كان
واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك
بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه، وعزم
على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم، فهو في مثل هذه الحال وقد
اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت
أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة
سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت
المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء
من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون، وغشي الناس بهتة عظيمة، وحيرة
شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعيول والبكاء والنحيب، وكان
لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من
هذا الحظ على مقدار ديانته ونخوته، واقشعت الحال على أن المركيس
لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام،
وحيز المسلمون إلى بعض اطراف البلد، وجرى على أهل الاسلام
المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال: ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم، وهو أشد
حالة من الوالدة الثكلي والوالهة الحيرى، فسليته بما تيسر من التسلية
واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان لسانه فإنه كان رجلا عاقلا مستنجزين ماوقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة مكرمين وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى.

قال العماد : وخرج سيف الدين المشطوب ، وحسام الدين حسين باريك، وأخذوا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدم ذكرها.

قال: ولم نشعر إلاّ بالرايات الفرنجية على عكا مركزه، وأعطاف أعلامها مهزوزة ، وعمّ البلاء ، وتمّ العناء ، وعزّ العزاء وقنط الرجاء ، وحضرنا عند السلطان وهو مغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم، فعزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعاده أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فما ذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقالهم ، ثم طلبوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خزانته بعد ما حصله ، وأحضر صليبههم المطلبوب المسلوب ، وأتم شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ

وهو بالمغرب في الرسالة : «لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفاء، قولاً لا يطرقه التسمح ، بل يحرزها التصفح فانبروا في هذه السنة ملكاً افرنسييس وانكلتيز وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة، واحدقت بالشجر فمنعت الناقل بالسلاح اليه، والداخل بالميرة عليه» ثم قال: «وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب، وماوهنا لما أصابه في سبيل الله وماضعفنا، ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم، وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ماكننا الى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا به ترد، وعاديتنا بها تشتد، والامير يبلغ مابلغه من خطب الاسلام وخطوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الاجابه، ويستصحب السهم ويسبق بشرى الاصابه، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه، فإن لاسلام نظرات الى الافق الغربي يقبلها ، وخطرات من اللطف الخفي يقربها، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقي غرباً، وخطرة أوهمت ان تلك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصباً».

قال العماد: وعزم ملك الافرنسييس على المسير الى بلاده لأمر إختل عليه، فأخذ قسماً من الأسارى وسلمهم إلى المرئيس ووكله في قبض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر ، وانتشروا بالمرج ووصلوا الى الآبار التي حفرها اليزك، وتواقعوا مع اليزك وأمدهم السلطان ففلوا العدو وصرع منهم خمسون فارساً.

قال القاضي: وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا

خنادقهم ، قال : ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب ، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الانكليز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور ، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة ، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجزها حتى حصل لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستمائة أسير ، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ، ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك ، فقال لهم السلطان : إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم ، ونعطيك رهائن على الباقي يصل اليكم في ترومكم الباقية ، وإما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا ، فقالوا : لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم ، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين في الحادي والعشرين الانكليز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهددهم، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم، وكان اليزك قد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ، ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعدّ للعمل في عمائرهم.

قال العماد: وطلب السلطان منهم أن يضمنهم الداوية في قبض المال، فقال الداوية : ماندخل في الضمان ، فاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهر من فحوى كلامهم الخلف، ثم ذكر قتل الاسارى ، قال: فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولا شك أن الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئذ في المال، وفرّق مجموعته في رجاء الرجال، وأعاد الاسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكانه وأعادته الى صوانه لا لعزه بل لهوانه، فإنه لامصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا، وانفذوا بعد رسول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صادفوا سولا.

ومن كتاب عمادي عن السلطان في ذلك: « وللكرام آجال، والحرب سجال، والله من المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحميات، وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن، بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام، فأين ذوو الأنفة والحمية، والهمم العلية، والنفوس الأبية، أما يغتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم، أما يثورون لشار

- ٨٨١٣ -

ايما نهم، أما تبكي العيون لمن قتل من أمائلهم وأعيانهم، فإن مصابهم
عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم
الراقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب 'عسقلان' مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون، وكل أسير أتى به السلطان أمر بقتله، ووصلوا إلى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدم السلطان ثقله إلى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري إلى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار إلى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر، والنواب بها ربما جنبوا عن إقامة الوظائف، وكان الأمر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك، وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألّبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والراجل، وعن يمينهم البحر، وعن يسارهم الرمل، وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون، وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشاب والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج، وثم قسم آخر من الرّجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثختهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرّجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الأول الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيّة معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة، وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع، وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محذقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزهم ، وليس معه الا صبيان بجنيبتين لاغير وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تخرج المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعلاه والعدو يشرب من أسفله، ليس بيننا إلامسافة يسيرة ،
وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدم في الساقه،
وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ،
وتقدموا على البركة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهم من ورائهم
هو ومن معه النهر ولم يأخذوا من خلفهم الحذر، ففجأهم وفجعهم ،
وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم ، ثم نهض
الفرنج اليه، وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال مبيدة ،
جلبت لنا غنيمة ، وعليهم هزيمة، وأحضر الأسارى عند السلطان
بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهم بالأمس ألف، وسرى فيهم
وهن وضعف.

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف، ونزل على قرية تعرف بدير
الراهب، وطلب ملك الانكليز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعوا،
فاشار بالصلح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننا القتال ونحن جئنا في
نصرة افرنج الساحل، فاصطلحوا انتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه،
فقال: على ماذا يكون الصلح؟ قال: على أن يسلم إلى أهل الساحل
ماأخذ منهم من البلاد، فأبى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل
كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة أرسوف تأهب
المسلمون للقائهم ، فأزعجهم وأبلوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو
فيه من الضيقة احتموا وحملوا حملة واحدة فانكشف من كان قدامهم،
واندفعوا وثبت ذلك اليوم العادل وأصحابه وقايماز الجمي، وعسكر
الموصل ، ثم كرت العساكر كرا إليهم، وجرت النوائب عليهم ، فجرت
بين الفئتين مقتلة عظيمة ، فلهجأوا إلى جدران أرسوف ،ولولا ذلك

لاستوعبت فيهم الختوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلا سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفترا، فلما رأى السلطان ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فارا يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين، وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه، وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين ، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية: «سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسرون البحر البحر لا يفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحل، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال، وما للقتال فيها مجال، وما وجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها، ومن جملة أيامنا المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية» فذكر الواقعة السابقة وفيها « أنه نفق ألف رأس»، ثم ذكر يوم أرسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس، ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلة، ورحل ليلا واصبح على بينا وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنى، قال: وزرنا بينا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه، وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمد العباد في هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك، وأما اهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ما ذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العباد: ورحل السلطان، ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على ما بها، ووافقه الجماعة وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه، فاقترضت الآراء اقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القاضي: أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولى عليها الفرنج، وهي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شمالها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان وما نام تلك الليلة إلا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقتة بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال : ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد ، ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نظرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولا يمكن من خرابها وأباح الناس الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وأمر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاحبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا، وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشرين ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح، فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا، وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم، فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق

البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجاً عظيماً مشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلاً للخراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقض منها الابراج التي على ساحل البحر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسومها، وفض ختومها، وقبض ارواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزول السوء بسورها، فما برح السلطان منها حتى رأينا طولها دوارس، ورسومها طوامس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس، قال: ولو حفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكناً، لكن وجد كلا له متجنباً، متجنباً، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها إتباعاً لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها، وفض سوارها، وسكانها كانوا في رفاهية ، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الاثمان ، وفجعوا بالأوطار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على بينا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخریب كنيسة لدا، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأسيس، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن

قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة، وتزوج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار، وسار مستهل ذي القعدة، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكليز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه، فظن انه الملك فأسر.

وقال ابن شداد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين، وقتل مقدم كبير من المشركين، ومازال يقع بينهم وبين اليكز وقعات، وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار: «قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين، وما صدق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان، ومنها إلى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار، وكلتاها من العدو على خوف

وحذار ، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدو وتأمينه».

ثم رحل السلطان إلى النطرون، وخيم على تل عال، والنطرون حصن حصين كان للداوية، لكن لما فتح تشعشت أسواره، وانقض جداره، فأمر بهدمه فهدم، ثم بعث ملك الانكلتيز راغباً في المصالحة والمسالمة إلى العادل ، وزعم أن له أختاً عزيزة عليه، كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صقلية ، توفي عنها ورغب أن يتزوجها العادل، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ أمره فيها، وهو يقطع الداوية والاستبار من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان، حافظة لها من آفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب ، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب، فنفذ الرسول إلى الانكلتيز بالاجابة ، فدخل الفرنج على المرأة وخوفوها، واتهموها في دينها وعنفوها، وقالوا لها مامعناه: هذه فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطبعة، فرجعت عن ذلك وما أجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتها إلا ان يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الانكلتيز .

قال القاضي: ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصلح الاسلام بشرط أن يعطى صيداويروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الاسارى ، ولما سمع الانكلتيز بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن الدكر قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قال العماد : وكان محتقراً للعظام ، مقترباً للمآثم واضعاً للشرب والقصف والمواسم ، وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين ، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببيكتمر ، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه ، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل ، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال ، وفصل أمر ، فأجاب السلطان بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ، ويعود الى الجهاد ، وأما ابن قفجاق فقد تقدم إلى مظفر الدين حتى نحضره إلى الشام ، فيقطعه فيه ، ويكون ملازماً للجهاد ، وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض ، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلت: وبلغني أن الفاضل رحمة الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:
ماكنت أول سار غره قمر
ورائد خدعتة خضرة الـدمـن
مثل لنفسك شخصي انني رجل
مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

قال القاضي: وأرسل الانكليز إلى السلطان إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبداً ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له، وهو عندنا

عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم ،
فارسل السلطان في جوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم
مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل
عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضا لنا في
الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين
في ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة لا يجوز أن
نفرض فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا ، وكان أسيرا بها ، وكان
أدّخر حبلا في مخدته فتدلى من طاقة في بيت الطهارة ، واشتد هربا في
قيوده إلى تل العياضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليه النهار، ثم كسر
قيوده وسار إلى المسلمين ، ثم تواتر الخبر أن الفرنج على عزم النهوض،
فسار السلطان من المخيم بالنظرون إلى الرملة سابع شوال، وأقام
بها عشرين يوما، فجرت وقعات ، تمت دفعات ، منها وقعة في ناحية يازور،
وكان النصر فيها للمسلمين ، وفقد من المسلمين ثلاثة ، وذلك ثامن
شوال ، وفي سادس عشر شوال وقعت وقعة أخرى عظيمة قتل
فيها جماعة من الامراء، وأسر فارسان من الكفرة معروفان بالبأس سوى
غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خامس شوال وصل الخبر أن الاسطول المصري استولى على
مراكب الفرنج ، ومنها مركب يعرف باسم المسطح قيل انه كان فيه
خمسمائة نفر وزائد على ذلك ، وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم
أربعة نفر مذكورون .

وفي ثامن عشر شوال اجتمع الملك العادل والانكليز على طعام
ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبة ، وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان
فامتنع رحمه الله وقال: الملوك إذا اجتمعوا يقبح بينهم المخاصمة بعد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنية المقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ، وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسبق منهم إلى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحي، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركوا خيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين إلى الرملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمرأؤه وأجناده ، ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أوما فيهم لبيب على العلات يعتبر
كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انتشروا

كم قد سقيتهم ذلاً فلا عجب
أن عريبدو أسفهاً فالقوم قد سكروا
إن يمموك فلا بدع لجهلهم
تسعى إلى الأسد في غاباتها الحمر
زاروا نمورا ولا تغني وقاحتهم
إذا أسسودك في أبطلهم زاروا
فحام عن حوطة البيت المقدس لا
خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصمها
فما على مجده من بعدهم حذر
وسوف تستغفر الأيام هفتوتها
وتحصد الفئدة الاوغاد ما بذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق، وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويداء، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتفى بالملك العادل فنصره وأظهره إلى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميافارقين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان بابن أخيه وابن اخته في تاريخ واحد، وكانا من أعظم الأعوان على ما يكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الأمير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر الحناية والأهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعمالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب للمالكة دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبة سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العماد: وكنت استنبتة في كتابة الإنشاء وخرّجته ، وقلبتة في مراتب المعالي ودرّجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم، وخواص الأمراء منهم والخدم، وكان نبيلاً نبيها كريماً وجيهاً. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شأنه كبر وهو كبير الشأن، وفي أواخر هذه السنة توفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها، واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التبديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيباً له الى كل ما استدعيه، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوها، وأعطاه في بنائها ألوفاً، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة من العلماء فردوا ، وشفع العادل في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ، فكتب بها له، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدلت بالوحشة الأنسه.

قلت :ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال :وفيها توفي الوجيه بن النفيس مستوفي ديوان دمشق بها، وكان نبيا مهيبا نزها عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الدين أبو القاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريها سخيا ناهيا سريا.

وفيها: نقلت تربة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان قاضي الموصل ، وقد بنى رباطا هناك ، وكانت وفاته بالموصل في الثامن والعشرين من جمادى الاولى سنة ست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه: «سبب اصدارها الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريح اذن عمه محيي الدين من الموصل الى المدينة المقدسة ، على ساكنها أفضل السلام ليدفن في الرباط الذي أنشأه حيث يبعث مع شفيع الامة يوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحد المحفور ، في جوار الضياء والنور، ويحشر بها يناله من البركة والحبور ، منشرح الصدر) اذا بعث مافي القبور * وحصل مافي الصدور(١٢٨) ، ولقد وفق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعة المعظمة ». قال: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور، فضائله متجاوزة حد الوفور.

قال ابن القادسي: ووصل الحاج في صفر بعدما اعتاقت اخبارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ ما في الكعبة من أموال، وأخذ طوقا كان يلزم الحجر الاسود فأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أربعمائة فضربه بدبوس ، وقال: إلى كم حجر، وفي يد ذلك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطويع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فأخذ الحجر وجمعت شظاياها، وألفت وجعل له طوق، فأخذ أمير مكة ذلك الطوق، فلما وصل أمير الحاج عزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناها على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قال ابن الاثير: وفي ربيع الأول سنة سبع وثمانين سار عز الدين —يعنى صاحب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرها وبها ابن اخيه معز الدين سنجر شاه، لأنه كان سيء السيرة معه خارجا عن طاعته مساعدا للأعداء عليه، فعزم على أخذها منه فخضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى، فتجاوز عنه واطرحه.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محقق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قريوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيتة وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلباً قد حمل جبلاً في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار بينيها في اللجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكاً في دارها وقمراً في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال :وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكليز دخاناً على بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم، فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوه وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاحين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرهما ،وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرم كبس عز الدين جرديك بينا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الآخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفاً، وأعطاهم بالباقي رهائن ، فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهّب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحببها المركيس ، ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبأ عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكليز وسر الانكليز بمصاّب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوباً الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكليز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين، وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح :أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادري أنه يتردّى ،وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين، ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الحسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ،وفيه روح : احملوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحاً على جرح، وقرحاً على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكليز فقتلا شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة،لانه كان عدو ملك الانكليز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها، ورحلوا عنها واسروا من فيها، وكان الانكليز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حليين، فتمكنوا من نقب المكان وحرقوا النقب، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب — كذا قال في الفتح. وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شداد — وقتل كند كبير، ثم نزلوا تل الصافية، ثم إلى النظرون، ثم إلى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهمهم المسلمون بنهبهم وأضعفهم بسلبهم، يتسلطون عليهم من كل ناحية، ويكمنون لهم تحت كل رابية، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو إلى قلونية، وهي من القدس على فرسخين، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرد في اليزك، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمّرت بهم فوارس، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة، فكبست وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادجوا، ولم نعلم قصدهم، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري، فندب الأمير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري، حتى يعلموا العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجى بها قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذا كله والملك العادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان، وسببه ماكان من تقي الدين وموته، وتشرط ولده في بقاء بلاد أبيه عليه، وان الافضل كان طلب من والده البلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلك البلدان ،ورحل من القدس في ثالث صفر، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى ما صاحبه برسم الخلع والتشريفات، ووصل الى حلب فاحتفل اخوه الظاهر لقدمه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته مائلا ، وبعطف الابتهاج اليه مائلا، وأحضر له مفاتيح بلده، وقدم له كل ما في يده ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه، ودفع منه الى ما ازهجه وأزهقه، ووصل رسوله الى العادل وهو بالقدس لاجئا إلى ظله، راجيا لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فاحتفى له واحتمله، وقوى في تقويته أمله، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه، وقال: أنا امضي إليه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ونعطيه في السنة الاخرى حماه والمعرة، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن اقطاعاته بمصر، ونصف خاصه، ففعل واستزاد قلعة جعبر، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر ، فسار العادل في العشر الأول من جمادى الأولى وكتب السلطان إلى الأفضل بالعود، فجاء هذا راجعا، وذهب ذلك مسارعا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القاضي ابن شدّاد :عاد الأفضل منكسرا متعتبا ، فوصل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليه وطلبه فما وسعه التأخر ، فسار إليه مع العساكر الواصلة اليه من الشرق فلقية السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قال ولما بلغ ابن تقي الدين موجدة السلطان ، أنفذ إلى العادل

يستشفع به لطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرها وسميساط ، وإما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة أخوته، فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شيء منه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل اخوته، وتخلي عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى وألح عليه فخرق نسخة اليمين ، وانقطع الحديث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد اولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده، ثم إن العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينزل عن كل ما هو شامي الفرات ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد : وكان تقدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلييس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو أمر القفل ، أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل ، فأتى تل الصافية فبات ، ثم سار حتى أتى ماء يقال له الحسي ، فأنفذ السلطان الى القافلة ينذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية ، وركب الانكليز الملعون مع العرب بجمع يسير ، وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره ، وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله ، فكان الشجاع الايد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانقسم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب ، وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجماهم وأحماها وجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكنه جمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الأموال ، وكلف الجمالين خدمة الجمال ، والخربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ، وبعثوا عنها زمانا ، ثم انكشف الأمر فعادوا ، وقد هرب جمع من الاسرى ، وكان الحاكي منهم ، وأخبر أن الاسارى خمسمائة ، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل ،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوما عظيما عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يمحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراء وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده، فحضر الأمير أبوالهيچاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكنت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة في ذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لو يتم أعتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجل للكتاب) (١٢٩) وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصدّيتهم لهذا كله ، وأكلتم مال بيت مال المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن بماليك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطينا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ما قال ، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه واطعمهم ، ثم انصرفوا ، ثم انقضى يوم الخميس على اشدّ حال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فدعاني رحمه الله وقال: أعلمت ما الذي تجدد؟ قلت: لا، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم وقال إنه اجتمع عندي جماعة المماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإننا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعاء، والرأي أن نلقى مصاف فإن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس ، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ، فشق عليه هذه الرسالة ، وأقامت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحيانا في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد ، وانفصل الحال على ان يقيم من أهله مجد

الدين بن فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان رحمه الله : يحدث نفسه بالمقام ، ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر على الإسلام ، فلما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم ، وانصرفت عنه إلى داري ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، وكنت أصلي الصبح معه في غالب الأحوال ، فعدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له : قد وقع لي واقع أعرضه ، فأذن لي فيه ، فقلت : المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الأسبوع ، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث ، ونحن في أبرك موضع يقدر أن يكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث لا يشعر أنه منك ، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيها ربك ، وتفوض مقاليد أمورك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحمك ويستجيب دعائك .

قال : وكان رحمه الله حسن العقيدة تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، ثم انفصلنا ، فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجدا ، وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه رحمه الله ، ثم انقضت الجمعة بخير ، فلما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جرديك ، وكان في اليزك يقول فيها إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا في البر على ظهر ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم ، ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم ، فذهب الفرنسيية إلى الصعود إلى القدس ، وقالوا : نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكليز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: ننقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليذك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز: إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقيين ، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرهم به يفعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكسين على أعقابهم والحمد لله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب السلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ، وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر، وكان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وما جرى اثناء ذلك
الى ان تم ذلك والله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العباد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لا يجوز لك أن تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرة أو قرية قبلتها وقبلتها، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان) (١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة وبقية البلاد نقسمها، والساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العاملين يكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان، فانفصل الرسول طيب القلب، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر.

ووصل الرسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول ان البابا قد وصل الى قسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسول : إني قتلت في الطريق اثني عشر فارساً، ويقول تقدم إلى من يتسلم بلادي مني فإني عجزت عن حفظها، فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولا أكثر به.

ثم جاء رسول الانكليز يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفرًا وان من سكن من النصارى والفرنج في البلد لا يتعرض لهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد الجبلية لكم ، وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ماعدا الزيارة وإنما يقولون هذا تصنعنا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكليز لابد له من الرواح إلى بلده. فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد فعسقلان وماورهاها وقراها لابد من خرابه، فقال الرسول : قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك ، وماسبب اصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية لا يطلب أن يكون فيه لارهبان ولا قسوس إلا في القمامة وحدها، فترك له انت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم ما في أيديكم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين

تارة، وبالحشونة أخرى، وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطزاره والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكروه، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداً منه، فأجابه السلطان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التي سأها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الوطأة ، ثم عاد الرسول وقال: إن الملك قال: لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك، أما البلاد فخذوها معروفة لا منكرة فيها، وعند ذلك تاهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء ، وبلغه في العاشر من رجب أن الفرنج خذلهم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب إلى بيت نوبة، ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولد وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل ، وركب المنجنقات، وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعة، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الإنظار، وأمر بالنقب فحشي وأحرق، فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشاباً عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلثة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان، فأظلم الأفق، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار، ورماح قد سدت الثلثة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعان المتسلق فيه

من جهة الثلثة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل
فقام رفيقه متصديا لمثل مالحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما
إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قد آل الأمر إليه سيروا يطلبون الأمان ،
فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركلي بمثله، والراجل بالراجل،
والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلثة
أشد من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال
ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل
لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه
مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة، ودخل
الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا
قماش ما نهب من القافلة المصرية ، واستقرت القاعدة على الوجه الذي
قرره السلطان ، وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر
العدو الذي بعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه أن الانكليز الملعون لما
سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتد
عزم السلطان على تنمة الأمر وتسلم القلعة ، وكنت ممن لم ير الأمان
لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم
يوثبهم عليه، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همهم العسكر، غير أن الأمان
وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من
القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه
على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر وأخذ
منهم الحديد، وشدة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على
الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمنا بوصول النجدة فسير
السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني
وعدل الخزانة شمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقل له يقف
ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم
وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهو سيرها إلينا ففعلنا ، ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ، وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار ، وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له : إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفرًا بخيولهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ثم اشتدت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان ، وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكليتز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبًا فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لأصحابنا : خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد ، وقد حمل القوم من القلعة وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعايا العسكر مشغلين بما لا يجوز فهاجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا ، ولما عرف السلطان أمر الناس زحف ، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطنوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحوناً ببيارق المسلمين ورجاهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، فرحل الناس وتخلّف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقه البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ما قال :هذا السلطان عظيم، وما في الأرض لاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له:بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادني وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلामه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقاين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكليتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما تشتيته ههنا فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذا أقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، ثم جاء رسول يقول: كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الإقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا، ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكليتيز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوا من أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على الموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة، وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجال ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيء حيث فوتهم الغنيمة، فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكليز أخذ رمح ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه: «الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكليز الا تقتلوه فقد قتله الله، ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العماير ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقية الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة، ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكليز قد مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضاً، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسلا الانكليز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثّر ومائتي فارس على قول المقلل، وإن الكندهري تردد بينه وبين الفرنسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً، فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكليز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخي — يعني — الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل إلى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشزيمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان إلى العادل: إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم إن الانكليز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرملة منها ولدًا ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقة وقال للرسول: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفع ومماثلة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خراباً وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاستتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأفضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبيدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعما رتها وشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية. قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقوا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية: «وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج
معلوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدا
ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملكك
الانكلتيز ما تفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى
الأحبة المركيس، والدوك، وملك الالمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر
عدتهم، وإما أن يعافى، فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى
مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه،
ونكص الملعون من الوفاء على عقبه، وانتظر الفرصة ليتتهز، والعورة
ليشب».

ومما قيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن
الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

يا صاح قل للانكلتيز الكلب دغ
عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع
كلا ولا نور الاله بمنطفي
والمسجد الأقصى فعنه تقص من
وقع الدبايس الأليمة تعرف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصح
واترك متابعة اللجاج المتلف
واعجب لرمح بالرؤوس معمم
واطرب لسيف بالدماء مغلف

قد قلت لما قيل صلح قد جرى
هذا حديث مخرف ومحرّف

سلف تولى السيف عقد شروطه
أحبب به من مسلم ومسلم
ظنوه سلماء وهم في أرواحهم
سلم إلى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكلتيز هذا في قصيدة مدح بها السلطان
رحمه الله يقول فيها:
منعت ظباء المنحنى بأسوده
وأشد ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها
كظبي صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتاز فإن في
خفقاته ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع
ولسأل سيل نداءه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما
لترنم الناقوس في أفنائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله أن طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير، وإخراج الفرنج منها، ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك، وخربت، وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والله العالم أن الصلح لم يكن من إثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قله—يعني حصنه—وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه، وكان كما قال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان إلى النظرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا

وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم، فيأمن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوار، واقتراح ان لا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه او بكتابه، وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا في الحج، فكان يرد في كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأوساط وملوك متنكرون، وشرع السلطان في اكرام من يرد ومدّ الطعام لهم ومباستطهم ومحادثتهم، وعرفهم انكار الملك ذلك، وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك، واعتذر الى الملك بأن قوما وصلوا من ذلك البعد ويُسّر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منعهم، ثم اشتدّ المرض بالملك فرحل ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان، وقيل انه مات، وسار هو والكندھري وسائر المقدّمين الى جانب عكا، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز و نفر يسير، ثم أعطى السلطان للناس دستوراً، فسار عسكر إربل والموصل وسنجار والحصن، وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القاضي: وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به في يوم تنمة الصلح، ووقع منه رحمة الله عليه، وقعا عظيما، وأمر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق، وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرها إلى البلاد ليعدوها، ورحل من النظرون رابع شهر رمضان وسار حتى أتى مار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مريضا بها فوجده قد سار إلى القدس، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثل فعرف بمجيء السلطان إلى مار صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار حتى لقيه بذلك المكان، وهو أول وصوله ولم ينزل بعد، ونزل وقبل الأرض وعاد ركب فاستدناه وسأله عن مزاجه، وسارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم.

وقال العماد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس لتفقد أحواله، وعرض رجاله واشتغل بتشديد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرسة (١٣٢) سوقا بدكاينها وأرضا ببساتينها، وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها، وعين الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان، وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر، وتأسف على فواته بعد أن قدم مقدماته وأقام شهر رمضان، وأفاض الإحسان، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطله: «إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام، ولا سلوا عن القدس، ولا وثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه، والعياذ بالله ويفرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال» ثم قال: «وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف وأكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسم، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السخيفة، فينعم المولى بتأمل ما أنناه المملوك مستورا فإنه يسأل مولانا أن لا يشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهم، ولا من غير مهم، يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر، ومن تسلط المقطعين على المتقطعين ما لا ينادي وليده، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما مالا زاجر له،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل ، وفرع من غير أصل ، وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشيت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر .

قلت : ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمئة ، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد ، فخيف من استيلائهم عليه ، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به ، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعيني لا ترقى من العبرات
صلي في البكا الأصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها
توقد ما في القلب من جهرات
ويا قلب اسعر نار وجدك كلما
خبثت بأذكوار يبعث الحشرات
ويافم بح بالشجو منك لعله
يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبثات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى
على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي
أنافست بها في الارض من صخرات

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر
وأشرف مبنى لخير بنسابة
وما زال فيه للنبيين معبد
يوالون في أرجائه السجادات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله
رفيع العماد العالي الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما
وللبر والاحسان والقرربات
يوافي اليه كل أشعث قانت
لمولاه بر دائم الخلدات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها
توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم
فمن بين نواح وبين بكاء
لتبك عليها مكة فهي أختها
وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة
وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها
ويطاطا لما غادتهما بشمات
لقد شتتا عنها جماعة أهلها
وكل اجتماع مؤذن بشمات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها
وقد كان مجد بادخ الغرفات
وقد أخذوا صوتا وصيتا أثاره
لهم عظم ما والوا من الغزوات

أما علمت أبناء أيوب أنهم
بمسعاته عدوا من السروات
وإن افتتح القديس زهرة ملكهم
وهل ثمرا لأمن الزهرات
فمن لي بنوح ينحن على الذي
شجاني بأصوات هن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله
يؤبى من فيسه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات (١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي
بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها
العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج
خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا
وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على
عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه
صلحا في سنة خمس وعشرين وستمئة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم
أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح
الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب،
وقال فيه حيثئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو صاحب جمال
الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:
المسجد الأقصى له عادة

سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا
أن يبعث الله ناصرا
فناصر طهره أولا
وناصر طهره آخره

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهور سنة خمس وأربعين وستمئة في دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد، والله يسهل عودهما إلى أهل الاسلام، ويؤيد الدين الحنفي على ممر الايام .

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعمارتها، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقليل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث، وهذه المعازل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم، فما زال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارتها .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية، وقال: الصواب

بناء هذه وتخریب كوكب، وصعد نظر رأیه فیها وصوّب، ورحل ضحوة
الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد
خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر، ووصل مع السلطان إلى دمشق
وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر، وتوجه إلى مصر وقد ضاق
نفسه ببذل ماله، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله.

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء،
وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صفد، وصعد
إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل
عاملة إلى قلعة تبين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين
الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى
مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا
ووادي التيم، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة، وعمل وادي التيم يمنا، وعرسنا
على مرج تلفيائا مقابل مرج القنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة،
ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء
بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين
سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي
والعشرين من شوال قيل له: إن الابرنس الأنطاكي ييمند، مع عصاة
من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة، فثنى عنانه
ونزل وأقام وما ارتحل، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته
بالمثول، وقربه وأنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة
عشر بارونيا، فوهب كلا منهم تشريفا سريا، وأجزل له ولهم العطاء،
وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ
عشرين ألف دينار، وخص أصحابه بمبار، وأعجبه استرساله إليه
ودخوله بغير أمان عليه، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه، وودعه يوم

الأحد وفارقه، وكانت الأثقال قد انتقلت من قب الياس إلى مرج قلميطة من البقاع فبات في المخيم، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج ييوس، وقد زال الهوس، وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها، ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرّاده، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنا يوم الأربعاء إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالدين، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها، وأبرزت نساءها ورجالها، فكانت يوم الزينة، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فاهتزت بقذومه واختالت، وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسن، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبار، ورفعوا أيدي الابتهاال بصالح الدعاء عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريف، واتصل تليد الجد بالطريف، واتسع فضاء الفضائل، وارتدع جاه الجاهل، وحل في القلعة حلول الشمس في برجها، وأخذت بحار سماحه في موجهها، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار، وأنال وأنار، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله، وأجلى بهائه والناس راتعون في رياض نعمائه، ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه، وينتظرون عزمه ويرقبونه، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره، وابتسام ثغر الربيع وافتراره، وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والسلطان مشغول بالصيد والقنص، منتهز من العمر للفرص، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء، وفضل الكرماء، وما كان أحسن إلى الحق أصغاه، وأشرع للباطل ألغاه.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية، وانقطع تشوفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صبح عنده اقلاع مركب ملك الانكليز المخذول متوجهاً إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياماً قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيهارستان انشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها ، ثم ذكر أزالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوال، وانفك بهاء الدين قزاقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحاً شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام ، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفاً.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها وإصلاح اجنادها ، وإشحانها بالرجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الإقامة على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر ، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانياً

وكان نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان ، فودّعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه ، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجميل وغريبه ما يليق بهمته ، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة ، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه .

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدتها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه ، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتية التي أعطاها السلطان إياها ، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه ، وسارا جميعا يتصيدان ، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبي ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه ، ونسي عزمه المصري ، وعرض له أمور آخر وعزمات غير تلك ، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاً عظيماً .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها: « حازك البين حين أصبحت بدرا » يقول فيها يعني قصيدته:

وأبيهـالـولا تغزل عينيها

لما قلت في التغزل شعرا

ولكنت مدائح الملك النـا

صر أولى ما فيه أعمل فـكـرا

ملك طبق الممالك عدلا

مثل ما أوسع البرية برا

ثم قال في آخرها :
نلت من الدين والدنـ
يا فتية اعلـ على الملوك وفخرا
فتمل الأعياد صوما وفطرا
وتلق الهناء فطرا ونحرا
يامسر الطاعات لله ان أضـ
حي مليك على الهناء مصرا
قد جمعت المجدين أصلا وفرعا
وملكت الدارين دنيا وأخرى

فصل

في ذكر أمور آخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقتني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنية بمدينة ملطية.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنا ودّعنا عند جينين ، وداع الأبد إلى جنة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، وله مواقف في الجهاد كثيرة معهوده ، ومقامات مشهورة مشهوده ، ووقف السلطان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القاضي ابن شداد : وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه إنما كان واليه عز الدين جرديك، وتوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصف شعبان توفي سلطان بلاد الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بقونيه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفرد كل منهم باقليم، فضعف بقوتهم، وعجز بقدرتهم ، وانخفض برفعتهم، فإنه فرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طاعتهم ، واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن غفراس ، فخالفه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفاس ، وقال له: أنا بين يديك عوض الاختيار ، ثم أدخل منه الديار ، ثم أبعد عن خدمة والده خواصه وأولياءه، وأفنى بالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه، واستخلصه لنفسه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثم جاء به إلى قيصرية ليأخذها من أخيه ، وأظهر أنه بأمر أبيه، فوجد قليج أرسلان فرصة في خلاصه ، فساق وحده ودخل البلد ونجا من الولد إلى الولد، فعاد ملكشاه إلى قونيه واقصرا دار ملك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ، وجاء به إلى قونيه فدخلها ، وحلى عطلها ، ومات بها ، فجلس مكان والده ، وقوي على أخيه .

قال : وجاء الربيع في شهر ربيع الأول ، فكتب إليّ نشو الدولة أحمد ابن نفاذه أبياتا يدعوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى ، وقد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعا الناس للذات مشمش جلق
فقد أسرعوامن كل غرب ومشرق
فقم ياعماد الدين تحظ بأكله
ولا تثن عنه عزمة السير تسبق
وقل حين يبدو أصفى اللون مشرقا
ويا حسنه من أصفى اللون مشرق
لاكلك ما يلقي الفؤاد ومالقي
وللنوب ما لم يبق مني ومالقي
فليس سوى الحلواء في القبدس مأكلا
وما جلبوه من زبيب وفستق

قال : فعرضت أبياته على السلطان فقال : ما قلت في جوابه ، فأنشدته :
هلموا نسا بق نحو مشمش جلق
و ثم كما نهوى على الأكمل نتقي
تصفى شوقا لا انتظار قدومنا
ومن يتعشق ذا الفضائل يشق
إذا حضرت أطباقه غاب رشدا
لما يتلاقى من مشوق وشيق
حكى جمرات بالفضا قد تعلق
فيا عجبى من جمره المتألق
كان نجوم الأرض فوق غصونه
فيا حيرتي من نجمه المتألق

وجناتها محمرة وجناتها
فمن يرهما مثلي يحب ويعشق
بـدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار في لجين مطرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين
غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

.....

كرات نضار بالزمرد محرق
تساقطها أشجارها فكأنها
دنانير في أيدي الصيارف ترتقي
ومشمش بستان الزكي بشهده
شهادته تقضي فزك وصـدق
يقول رفيقي في دمشق تعجبا
أمالك بستان مقالة مشفق
فقلت إلى باب البريد وسوقه
لأمثالنا تجنى بساتين جلق
ولو كان لي بالسهم سهم وجدت لي
منالي بأيام الثمار ومرفقي
إذا كنت مبتاعا من السوق مشمسي
فمالي إلا لذة المتسوق
ومالي بأرباب البساتين خلطة
فيصبح في حيطانها متسلقي
كرام وثوقي في الشتاء بودهم
ولكنهم في الصيف ينسون موثقي
ومائم من يجدي ويقري ويقتني
ثنائي سوى المحيي الكريم الموفق
وذلك يوم ليس غيره
أمن أجل يوم واحد قلت لي أسبق

على أنني لوقيل بالصين دعوة
أثرت اليها الوعة المتحرق
فإن جئت قبلي جلقا فارم منعما
حديثي بنادي المنعمين وحلق
لعل كريا يتتخي لضيافتني
بمشمشة عند القدوم وينتقي
فلاتنس نشو الدين نشوة خاطري
وقل عن صبحي كيف شئت ورقق
وهات وساعدني وخدم من قريحتي
لطيمة دارى من الحمد واعبق

قال: فقال لي السلطان عن صبح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق
وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبى عن
الخدمة لا يدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد
أذن لي السلطان لمهم له أيضا اتفق:
قد صبح عزمي على المسير فلا
أبغى مقامى والقلب قد رحلا
امضى إلى دمية مقبلها
أرشف منه المدام والعسلا
مصور بل مدور عجب
ترى به وهو جامد شعلا
ففي قلوب الأشجار منه جذي
وفي ظهور الغصون منه كلا
طلو ابنا النصار ظاهره
لباطن في حشاه نار طلا
يخفي إذا ما بد العينك في
فيك وفيه النوى اذا وصلا

حلى تبر على عرائس أغصانها
 ن تشكيت من قبلها عطا
 حمر حسان الوجوه قندلبست
 من خضر أوراقها لها حلا
 عرائس من خدورها برزت
 تحسب أشجارها لها كلالا
 حلاوة لا يمل أكلها
 إذا الحلاوات أحدثت ملا
 زهر كشهب السماء راجحة
 جن جناة بقطفها كافلا
 عيونها الرمد في ترقبنا
 جاحظة أبرزت لنا مقالا
 ماذا التواني وذا التآخروالا
 بطاء قدّم مسيرنا عجلا
 نغدو خفافا إلى مواسمها
 من قبل نبلى بصحبة الثقالا
 قد انتظرنا من الخزانة ما
 نعطي فأكدى نواها البخلا
 فإن عدمنا من عندهم ذهبنا
 فما عدمنا عنه به بدلا
 وكلنا في عوارف الملك النبا
 صرنا رعي ونسلك السبلا

قال: وقلت فيه رباعية:

المشمش لا انتظرنا مصفر
 والبروض إلى لقائنا مفتر
 قم نغتنم الوقت فهذا العمر
 لا لبث له فمن به يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمر الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ، ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفر بن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه: «المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نية، وأنا مشدود الوسط في الخدمة». ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمر المؤمنين ، وله اقطاع بمائة ألف دينار.

قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرفف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيمارستان ، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ، وله أربع عشرة سنة ، وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولا يحتاج الى قائد إذا مشى ، ثم قدم العراق ل مداواة عينه فأياسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه ، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ، وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملئ:

أحب عليا والبتول وولدها

ولأجحد الشيخين فضل التقدم

وابرأ ممن نال عثمان بالاذى

كما أتبرأ ممن ولاء ابن ملجم

ويعجبني أهل الحديث لصدقهم

فلست إلى قوم سواهم بمتهم

- ٨٨٧٣ -

وله أيضا في غير ذلك:

وزهدني في جميع الأنسا

مقلبة انصاف من تصحب.

هم الناس ما لم تجربهم

وطلبس الذئاب إذا جربوا

وليتك تسلم عند البعا

دمنهم فكيف إذا تقربوا

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه، والضيوف في فيوض انعامه عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم، وبرز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية، وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقى، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ما تمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها واداراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقيه بالاكرام.

قال القاضي ابن شداد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم، وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرنى وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضممني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرنى بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان، وعنده أولاده الصغار، فسأل عن الحاضرين، فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر، فاستحضر رسل

الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا، وكان له ولد صغير، وكان كثير الميل إليه يسمى الأمير أبابكر، وكان حاضرا وكان رحمه الله عليه يداعبه، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكاهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم وقال لي: أكلت اليوم شيئا، وكانت عادته رحمه الله هذه المباشطة، ثم قال: أحضروا لنا أرزا بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة، فأكل رحمه الله، وكنت أظن أن ماعنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل، فلما فرغنا من الطعام ، قال: ما الذي عندك من خبر الحاج، فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم، وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء والأمطار، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار، وانفصلت عن خدمته، ولم أجد عنده من النشاط ما أعهده منه، ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقي الحاج ولم أجد عليه كزاغنده، وما كان له عادة يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد ، فاذاكرته ذلك، فكأنه استيقظ، فطلب الكزاغند فلم يوجد، وأوقع الله في قلبي تطيرا بذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر إليها وهو طريقه المعتاد، وكانت آخر ركباته رحمه الله.

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحه جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك، فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سافراً وحضراً، ورأى الأطباء فصدّه ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديداً الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ، فغير وعرض عليه ثانياً، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بالقدح رأس من أحضره، واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايداً، وتغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبة ما لا يمكن حكايته، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا أحواله وانصرفنا، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا، ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفتين، وحصل من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد، فدخل، ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخذ في ساقه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد به تزايداً عظيماً، وخارت القوة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ما حل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا إلا احتياطياً على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة، وناصر الدين صاحب صهيون، وسابق الدين صاحب شيزر، وخشترين الهكاري، ونوشروان الزرزاري، وعلكان ومنكلان، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكي الفارس، وأبيك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوّته، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل، وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبّيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك رأياً، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة، وهو رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إن احتضر بالليل، حضر عنده، وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يؤدّ لو فداه بنفسه، وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)^(١٣٤) سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله، ومحل كرامته، ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لا اله الا هو عليه توكلت)^(١٣٥) تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوؤ والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لو قبل الفداء لمدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين، وكان يوماً عظيماً قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ، فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهد لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، وندبت إلى الوقوف على غسله، فلم يكن لي قوة تحمل ذلك المنظر، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدار التي في البستان الذي كان ممرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزيناً، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجددنا

حالا من الحزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى أخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلم المتكلمون، ولم ينشد شاعر، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه، وهو يحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا باحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد اغلق باغلاق بابيه رهنه، ولم نشعر بما قضاه القدر وأجبه، وخرج من خدمه من أخبر بسقمه، وكان من شرط الأدب أن يخلى له موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجعت الظنون، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار، ودجت مطالع الأنوار، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمس فضاء الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، ودفن بقلعة دمشق في مسكنه، ودفن جماع الكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملك الأفضل قبة شمالي الجامع في جواره، بشباك إلى الجامع لزواره، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال: وما قلت رباعية في المراثية:
قال الملك الناصر من كلفني
في الجرد بغير شيمتي فما أنصفني

ما يعلم أن ذلك الملك فني
لم يبق من الجود إلا كفنني

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، وما زال الأفضل يترؤى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة إحدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجاوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الأفضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية: «أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلًا يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الأثر النبوي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١٣٦) قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى: «أفلت الشمس عند الصباح، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهاها كثير من الأرواح، وتلك ساعة ظلت لها الأبواب حائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الإسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلاً لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر». وقال: «وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر»^(١٣٧)

ونختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أولها:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي ملد لم يزل مخشية
مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نياته
أين الذي مازال سلطاننا
يرجى نداءه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه
ذلاً ومنهها أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيافه
أطواق أجساد الورى مناته
لم يجد تدبير الطيب وكم وكم
أجدت لطيب الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته
حتى توارت بالصباح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مذعاش قط لذاته لذاته
معهودة غدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواته

في نصره الاسـلام يسـهـر دأئـها
ليطـسـول في روض الجنـان سنـاتـه
لا تحسبـوه مـات شـخـص واحـد
فمات كـل العـالمين مـماتـه
ملك عـن الاسـلام كان محامـيا
أبـدأ إذا ما أسـلمتـه حماتـه
قد أظـلمت مـذغـاب عـنها دورـه
لما خـلت مـن بـدره داراتـه
دفن السـاح فليس يـنبش بـعد ما
أودى إلى يـوم النـشـور رفـاتـه
الدين بـعد أبي المظفـر يـوسف
أقوت قـواه وأقـفـرت سـاحاتـه
جبل تـضعـض مـن تـضعـض ركنـه
أركـبنا نـا وتهـدنا هـداتـه
ما كنت أعلـم أن طـود أشـاخـا
يهوي ولا تهوي بـنا مـهـواتـه
ما كنت أعلـم أن بحر اطـامـيا
فينـا يطـم وتنتـهي زخـراتـه
بحر خـلا مـن وارديـه ولم تـزل
مخـفوظة بـوفـوده حـفاتـه
مـن اللـيتامـى والأرامل راحـم
متعـطف مـفضـوضة صـدقاتـه
لو كان في عـصر النـبي لأنـزلت
في ذكـره مـن ذكـره آياتـه
فعلى صـلاح الدين يـوسف دأئـها
رضوان رب العـرش بـل صلواتـه
لضـريحه سـقيا السـحاب فإـن يـغب
تـحضر لـرحمة ربـه سـقيا تـه

وكعادة البيت المقدس يحزن الـ
بيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه
من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداة لحزن مصابه
إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في اغمادها
لا تنضيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت
في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الذي
يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه
أسد وإن بلاده غابات
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكانها سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به
يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره
والوجه منه تالأت سبحاته
ويقول الله المهيمن حكمة
في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه
لهم فقيم تأخرت ركباته
كانوا وقفا أمس تحت ركابه
واليوم هم حول السريرمشاته

ومالك الآفاق ساعية له
فمتى تجيء بفتحهن ساعاته
هذه مناشير المالك تقتضي
تبويعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها
هذا الربيع وقد دنا ميعاته
والجند في الديوان جدد عرضه
وإذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه
عجل فقد طمحت إليه عداته
والغرب منتظر طلوعك نحوه
حتى تفيء إلى هداك بغياته
والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا
في ملكه حتى تطيع عصاته
مغرى بإسداء الجميل كأنها
فرضت عليه كالصلاة صلاته
هل للملوك مضاهة في موقف
شدت على أعدائه شداته
وإذا الملوك سعووا وقصر سعيهم
رجحت وقد نجحت به ساعاته
كم جاءه التوفيق في وقعاته
من كان بالتوفيق توقعاته

قال: ووجد بخط العماد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله
وبه توفيقى»

ياراعيا للدين حين تمكنت
منه الذئاب وأسلمته رعياته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيها
ديناتولى مذر حلت ولاته

أضجرت من أأم أنفت فلم نكن
نصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فوق السماء عليه درجاته
فارقنت ملكا غير باق متعبا
ووصلت ملكا بأقاراحاته
اعزز على عيني برؤية بهجة الـ
دنيا بأبى ما الكرام أباته
لا تقتدوا إلا بسنة فضله
لتطيب في مهد النعيم سنواته
وردوا موارد عدله وساحه
لترد عن نهج الشمات شماتته
ولئن هوى جبل لقد بنيت لنا
بنيه من هضباته ذرواته
وبفضل أفضله وعز عزيزه
وظهور ظاهره لناسرواته
الأفضل الملك الذي ظهرت على الـ
دنيا بزهر جلاله جلواته
والدين بالملك العزيز عماده
عثمان حاليه لنا حالاته
والملك غازي الظاهر العالي الذي
صحبت لأظهار العلى مغزاته
ولنا بسيف الدين أظهر نصرة
بالعادل الملك المطهر ذاته

وللعباد فيه قصيدة أخرى:
من للعلامن للدرى من للهدى
يحميه من للبأس من للنائل

طلب البقاء ملكه في آجل
إذ لم يثق ببقاء ملك العاجل
بحر أعساد البر بحر أبره
وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق في أيامه
وبعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من أبكارها
أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقي بغيرك وإبلا
ورأيت جودك نخجلا للوابل
فسقاك رضوان الإله لأنني
لا أرتضي سقي الغمام الهاطل

فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً، ولا بستاناً ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفاً ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الاملاك.

وقال العماد في كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً، فإنه كان باخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرمات، وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بالآلاف، ولاجبه أحداً بالرد إذا سأل، بل تطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفاً في سبيل الله بالانفاق موقوفاً عزمه في الأعداء بإدناء الآجال، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وما عقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكة مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ما وهبه من الخيل العرب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصاهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثني عشر ألفاً المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهادا.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، ف قيل له: كان السلطان يضيع هذه، وما عنده لها حساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوه من معاييه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قال في الفتح: وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزل، ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لا يعلم أنه يجالس السلطان بل يعتقد أنه يجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعشرات، متجاوزاً عن الهفوات، تقياً نقياً، وفيها صفياً، يغضي ولا يغضب، ويشير ولا يتقطب، مارداً سائلاً ولا صدد نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً.

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سألته عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب، فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فمطلبها ولا ذكرها، وأراه أنه ما عرفها، على أن صاحب الديوان ما أنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت: إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال: فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح، ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمئة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مما يليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة، فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجهها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظاً على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظباً على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأته صلى إلا في جماعة، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوماً صلى به من حضره من أهل العلم، إذا عرفه متقياً متجنباً للآثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغياً، ولم يزل لقوله ملغياً، ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوماً على يوم، ولا زماناً على زمان إلا بتفضيل الشرع، وما زال ناصراً للتوحيد، وقامعاً لجميع أهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولاً وفروعاً، معتقلاً له معقولا ومسموعاً، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النبيه، ووجهة الوجيه، فالعاملون في عدله، والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليما، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتاك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعول عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جارية على نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، ومات ترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فإنه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة، وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لا يوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لا يسمع ويقول: ما أعلم ما يكون، فكأنه كان ملهما براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له لاسيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب، وعملت الزوادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخره إلى العام المقبل، فقضى الله ما قضى.

قال: وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام، وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم متقناً لحفظه، وكان يستقرئ من يحضره في الليل، وهو في برجه الحزين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرئ في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقرّبه وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءاً من مزرعة، وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، واسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلاًلاً له، وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ السلفي بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه، وكان كثير التعظيم لشعائر الدين قائلاً ببعث الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار، مصداقاً بجميع ماوردت به الشرائع من شرحاً بذلك صدره، مبغضاً للفلاسفة والمعطلة والدهرية، ومن يعاند الشريعة المطهرة، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس، وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيمًا ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لما يعرض عليه من القصص، كاشفاً لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته، وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد رأيت وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه، وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهما واتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولم يجابه في الحق.

قال: وكنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انك لاتحابي، فقلت : وفي أي قضية هو خصمك، فقال: إن سنقر الخلاطي كان مملوكي، ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: يا شيخ وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية فقال: الحقوق لا تبطل بالتأخير، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وتم الشرط إلى آخره، فتعجبت من هذه القصة، وأعلمت السلطان بذلك، فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدي، وكنت إلى جانبه ثم انفرك من طراحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقال السلطان: إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يدي وملك لي إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كما ذكرها، وذكروا التاريخ كما ادّعاه، فأبلس الرجل فقلت له: يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى وما يحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر من أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان فأعطاه إياها، ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن في الخزانة مانعطيهم، فباع قرية من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد، وكان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطى في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئاً من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعتة يوماً يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب، وما سمعتة يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئاً، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وما سمعتة قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وما خدمه قط أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه الله من عظماء الشجعان، قوي النفس شديد البأس، عظيم الثبات لا يهوله أمر، ولقد رأيت مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس، وصبراً، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتة أنا بستمائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا يعلم، ومراجع من هذا العالم إلا الأقل.

قال: وكان لابد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد، وعلى يده جنيب، ويحرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، وما نقل أنه سمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً، فأذن في ذلك فأحضر جزءاً هناك من له به سماع، فقرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يمشي تارة ويقف أخرى، وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير يذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكوس والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو صابر مرابط وتترأى النيران ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد، وفي الارفاد، لصدق وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد وحببه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظرا إلا في آله، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشواهد ما ذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرقة في وقعاته رحمه الله، منها ما قاساه على حصار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

ما أبهج الدين والدنيا بالكها الصـ

ـديق يوسف لا لذت به الغير

ملك تساوى جمادى في الجهاد وتـ

ـموز لديه وضاهى ناجرا صفر

فليس يشيه حران توقد عن

رضى الاله وإن اغدق المطر

ولا ينهنه عما يكابده

ضج أعيد معاليه ولا ضجر

ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة

في بطن معركة مركوبها وعر

صبر جميل كطعم الشهيد في فمه

وعند كل مليك طعمه الصبر

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على

الجهاد، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت به آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا تبقى في عدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيماً، والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً، وموجه كالجبال، كما قال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدينار، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينما أنا في ذلك اذ التفت إليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائريهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ما خطر لي، ثم قلت ما هذه إلا نية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هذه الطوية ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصره دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دما ميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئا على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن صلاة العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدما مل، وكان يعجب من ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية، ولقد مرض ونحن على الخروبة، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعا في أن ينالوا من المسلمين شيئا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحل العدو في اليوم التالي يطلبنا، فركب رحمه الله على مضض ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده في القلب، ونزل هو وراء القوم بطلبه، وكلما سار إلى العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويظل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو على تل قبالتهم مطل عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر أن تعود إلى نخل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب رحمه الله، وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو

ورحل العدو عائداً إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقاً كثيراً، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال: لانام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألد فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل بخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال: ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام، ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو ييازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديداً حتى أبكنا

من غير أن نعلم السبب، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقي الدين، فاشتد بكاءه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم، وأعرضوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لا يعلم هذا أحد.

قال: وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قال: ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا، يسر الله فتحها، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة، وأنا في خدمته يقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه، فنزل يوما على عادته ومدّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقليل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلي المكان إلا عمن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر آخرها ساعة، فلم يفعل وقدمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال: رجل مستحق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في باب الحركة بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدر الحركاه والحركة كبيرة، فقال له المخاطب هاهي الدواة في صدر الحركاه، قال القاضي: فليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت رحمه الله فرأى

الدواة، فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: (وانك لعلی خلق عظیم) (١٣٨) وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لأحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لا يضيع أجر المحسنين) (١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس، كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكته جميع ما كان عليه، وهو يتبسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكليز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا، فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمانينة والأمن والسرور.

قال: وكان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه، وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوال عند منصرفه من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيت أنه وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واکرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لثلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده وينالهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توريذ، فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبائته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة، فلما صلينا الصبح أخذ يودّعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله، فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدد النكير عليّ في ذلك، فما وجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبته اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد رأيت رحمته الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجبنى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ما أرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لا يرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يجب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيت أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلصه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلصه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يرى شيئا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:
ألست ترى كيف انبرى الخطيب ثائرا
ومدّ يداً منه إلى دافع الخطيب
إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفاً فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب
أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب
ولو أنه يبكي على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الاسم خيراً إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديداً الخوف من مقارنة الصلب
أذل الله العداً ما أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجواري وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الأولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الأحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده أحد أولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال: ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبي والعقبى فيما طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح: تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الأولياء، وخلع على الأمثال والامراء والافاضل والعلماء وأوى إليه اخوته، وضم جماعته، وجهاز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعليك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العرب ما استنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لا يظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ما كان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصليبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمّة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها: «اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهاال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخّر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيماً على جدد الجدد، مستقيماً في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في الجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشدّ خناقها، وقمع عبدة الصليبان وقطع اصلاها، وجمع كلمة الايمان وعصم جناها، ونظم أسبابها، وسدّ الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابع الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالممالك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، وحيى ستي الجود والبأس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانوس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلات ومن تابعهم، وبايعهم وشايهم، وقد خرجوا في ايمانهم حائنين، فخيم ببركة الحب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز جيشاً فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم، وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال :وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غازي، وهو برجاحته وسماحته الطود والجود الموازن الموازي، ومملك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحماها وحوأها، وبهاء العدل رواها وقوآها، وأقر البيرة وأعمالها وما يجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرية والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخوته وأولادهم إليه، وعوّلوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثم زال ملك هذا البيت في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد، والله بصير بالعباد.

ومن كلام القاضي الفاضل في جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان:«متى رأى المملوك خط مولانا طالعا في كتاب، وطلية على خطاب، تمثل ذلك الشخص الكريم، وذلك السلطان العظيم، وذلك الخلق الكريم، وذلك العهد القديم، فحيي بعد موته، وسبح من (يحيي العظام وهي رميم)»(١٤٠)، ورفع يده بها الله رافعه، ودعا بصلاح الله سامعه».

قال العماد: وكان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته، وكان موافقه ومرافقه في مقتضياته، فلما عاد السلطان إلى دمشق ودّعه ومضى إلى حصنه بالكرك، فنابه النائب، ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب، فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام، ولم يطل المقام ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذرا عليها من أهل الجزيرة، وكان السلطان جعل له كل ما هو شرقي الفرات من البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجد مماخافه دلائل الفترات، فأقام بقلعة جعبر، وسير إلى الولايات
الولاية، ووصى برعاياه الرعاة، واستناب في ميافارقين وحاني وسميساط
وحرّان والرّها، وشحنها بالشحن وعلم العدا انه في خوف، فخفوا
وعرضوا وصفوا، وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر
بموت السلطان، وتلقب بالملك الناصر، وحدث أمله بجر العساكر،
وراسل صاحبي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه
من ماردين ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء
ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين،
وأول من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين، ونزل على
حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين
صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرّها، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب
الموصل وأخوه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل:
تخرج من بلادنا أو تدخل في مرادنا، فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم
ويستنفرهم فأنجدوه، وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدّم ذكر نجدة
الأفضل مع أخيه الظاهر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز
الأمر، ووصلت المواصلة إلى رأس عين، والعادل بحران، وتقارب
العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه، فمرض صاحب الموصل
ولم يطق الإقامة، فغادر ورجع عماد الدين أخوه، وتضرع صاحب
ماردين، وتشفع الأمراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه
الظافر إلى الفرات، فكتب إليه بمنازلة سروج وهي من أعمال ماردين،
وأمدّه بابن تقي الدين، وابن المقدّم، فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها
تاسعه، ورحل العادل منتصف رجب إلى الرّقة وتسلمها، ثم تملك بلد
الخابور جميعه، وجاء إلى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضم ذخائرها،
فجاءت الرّسل العمادية في طلب الصلح، فرحل ونزل دارا، وأتاه خبر
وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه،
وجرى بينهم وبينه صلح، ثم كاتبه أهل خلاط، فرحل إليها فرأى أن

- ٨٩١٤ -

البرد يشتد وأمد الحصار يمتد، فعاد إلى حران والرها، وأعرض عن
مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: وإقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين
ابن أيوب أخي السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشأن، مستول على
جميع البلدان، وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام،
فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالأسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه. وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي فإننا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسیر، وإنما الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ برأيهم وننظر ما يقولون. فقال أخي: إن كنتم تفعلون ما يشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لا يرون إلا هذا لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم، إنما الرأي أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم، ويعلمهم أنه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الإنسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وإن كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أخي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم—يعني صاحب الموصل—قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدة شهور يرأسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنها اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز

الدين عن الموصل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حيثئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية؛ الرها، وحران، والرقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخيه، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضاً بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لا يزال ذاكرةً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان أسمى ملبح الوجه حسن اللحية، خفيف العارضين، وحكى لي والدي قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديناً خيراً قد ابتنى في داره مسجداً يخرج إليه في الليل، ويصلي فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من

الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد أخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستمئة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الأمير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الأول من سنة خمس عشرة وستمئة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغاراً.

قال: وأما عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحمه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريق الخمر وحد شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرشق العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردین في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردین، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقتهم، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعهم وعسكرهم، ثم خرج الأفضل عن مصر عازماً على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردین جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردین، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

- ٨٩١٨ -

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى
سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها
ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر،
وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجان، وأنفذ الخليفة
رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح والله الحمد.

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفة بالعقبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل ما فيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرب الأجانب ويبعد الأقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتیان الشاغوري :

متى أرى وزيركم
ومما له من وزر
يقلعه الله فدا
أوان قلعه الجزر

قال العماد: لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمرُوا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطراب، فأعزهم

العزیز، ورفعهم فاتفقوا على أن تكون كلمة الإسلام مجمعة على الملك العزیز لإحياء سنة والده في الجود والبأس والكرم، ومن جملة الأسباب الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيه، وضعف الأفضل عن استخلاصه، فقبل للعزیز: إن توانيت استولت الفرنج على البلاد، فخرج العزیز بعساكره، وبلغ الأفضل فضاق صدره، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمي وكان في اقطاعه بالسواد، وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد، فأرسل إليه فلم يقبل ورحل إلى عسكر العزیز، ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يجب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه، ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهاب الالحن، فأشير عليه بغير الصواب، وقيل أنت الكبير وإليك التدبير، فجهد واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخور الذي داخلك، والجبن الذي نازلك، ونحن بين يديك، وكلنا عاقدون بالخصاص عليك، ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الأكابر بالانجاء المتظاهر للأفضل، وسير الأفضل إلى عمه العادل وهو بحران والرها كتباً ورسلاً، لما أبطأ عليه مسير عز الدين عثمان الزنجيلي على نجيب ليسر ويأتي به عن قريب، وكتبه واصلة بعزمه على نصره ونجدته، وذلك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضل إلا والعزیز بعساكره قد وصلوا إلى الفوار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزیز ساقه جيش الأفضل، فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جمادى، ونزل العزیز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل، فكتب إلى العزیز يسأله الاجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذله في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقال: نفس عن البلد الخناق، وكان قد بلي البلد منهم بهالاً يطاق، من قطع الأنهار، وقطف الثمار، فتأخر العزیز إلى صوب داريا، والأعوج، وكان قد اجتمع عند الأفضل من

الملك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقى ونزلاً بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضت بالتفرق من سنين
وغض الدهر عنها طرف غدر
مسافة قرب عين من جبين
وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون
فريح الدهر لم يسمح بوصول
يعود به الهجوع إلى الجفون
فراقنا ثم يعقبه بين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يدي جيوش القرب حتى
يرتب جيش بعدي الكمين
ولا يدي محلي منك الا
إذا دارت رحى الحرب الزبون
فليت الدهر يسمع لي بأخرى
ولو أمضى بها حكم المنون

قال: ثم كثر الشر ممن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك، وازمعو على الانفصال لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مصر عز الدين سامة، وحرص العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الاختيار، مع من حوله من الأشرار، وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدى وتسعين فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام، وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب، مع من حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد وأناب، وشرع في كتب مصحف بخطه، وحسنت طريقته، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتدّ غم الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل، ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل، فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع معه إلى دمشق ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلّف عنه الأفضل، وقصد

حلب للاستظهار بأخيه الظاهر، فوثق معه الإيمان على ما كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مغتماً لذلك، فبالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمة عمه، وضاق أخوه الظافر من هذه الحال، وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والأمراء ممن هم في طاعته من جملتهم صاحب حماه، وعز الدين بن المقدّم صاحب بارين، فراسل العادل في الاعتصام به، وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرد بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه فتعذر عليه ردّهم، وتيسر له ودّهم، فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار .

وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل، فكاتب الأمراء الأسدية من أصحاب العزيز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حزب الأفضل وسلوكه، وكانت الأسدية أبداً في عناء من تقدّم الناصرية عليها، وراسل العادل أيضاً العزيز يخوفه من قبل الأسدية، ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السمين، فدارت الأكراد حوله وقالوا: لانأمن عليك من الناصرية فأبرموا أمرهم، وعجلوا رحيلهم، فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشية الإثنين رابع شوال، وكانوا أكثر العسكر، واعلم العزيز بهم فما بالي بانصرافهم، وقال: صفونا من أكدارهم ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردّهم، وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسول أبي الهيجاء السمين إلى العادل يعلمه برحيل العزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل والأفضل على ملك مصر أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان.

وخرجوا يوم الأربعاء في الجيوش واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى، وأما العزيز فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدمهم الأمير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودة والاحياء، فلما وصل العزيز تلقوه، وإلى ذروة سلطنته رقيه، وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدرُوا، واجتهدوا أن يدركوه ويتقدموا فتأخروا فأمرهم العادل بالثبات، وتسلم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بأمر الأفضل والعادل فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفه الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غال، وظهرت ندامة الأسدية، وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم، فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للإستزارة، ويسترشده بالإستشارة، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يجب الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنيتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلل شرابه وطعامه، وحسن شعاره، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز، تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الحب، وخرج العزيز لتشيعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقّه على المسير ويرافقه فيه، فراه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولا شك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّه وهبها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لا يسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعاذل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهاً بالعدد والعدد، لا يحدث حدثاً، ولا يعيث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعاذل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فيما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة؛ فحادوا ولم يكثرثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قد استنهضه إليه بكتبه، ففتح له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحول الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلاً إلى بلاده وقد أذخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ما قرّره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعته، وقرعه بما أنبىء به وأنبه، وقال

له: أبني وتهدم، وأوجد مصالحك وتعدم، فأنكر الحال وأحالها وانتقض الأمر قبل إبرامه، ووجهه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه، وسد طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بصرى للظفر بسلامته، وبذلها ولم يتبعها بندامته، ورحل إلى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به، وأما الأفضل فإنه سار إلى قلعة صرخد وسكنها، وحوّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطنها، وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دخل العزيز إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يوم الجمعة في دار العدل، واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برّز للرحيل، وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم، ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر، فلما عاد العادل من وداع العزيز قرىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال، وشاع أنه نائب العزيز، وهو سلطانه، وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه، حالية برسمه، وضرب الدينار والدرهم على سكتته وأظهر أنه قوي بشوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبي من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعلم أيضاً كتاب آخر سماه «بنحلة الرحلة» ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العمد الرحلة إلى مصر، فأصبحه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معها لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموضع، ودخل دار الأمير سامية في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنّيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيرية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبهما، وتبعنا العمد فيما ذكر في العتبي لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي: «أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيئات أن يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة، وقفت على ما حسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أن القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتابا قال فيه: « وما جرى في هذه المدود من المثلاث الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا، ونحن نيام وظن الناس أن اليوم الموعود قد طرق في الليل الممدود فإذا هم قيام إن الله تعالى أتى بساعة كالساعة، كادت تكون للدنيا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي لهوبها واشتد هبوبها، وارتفعت لها صعقات، وتدافعت لها أعنة مطلقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجاج، فليل هذه على هذه قد انطبقت، وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى وتقفى الثانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولا تحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ما كان فوقه من الرقوم، ولاتزال هذه الرياح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا، فكنا كما قال الله تعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق) (١٤١) وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لاعاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار، وفرّ الناس رجالا ونساء وأطفالا، ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لا يستغربون العذاب لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجوم، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قد رد له الكرة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرهما ماكان معترضاً في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائماً فدفتته الرياح حياً، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولا يحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفاً، والقول مجزفاً، فالأمر أعظم ولكن الله سلم، والخطب أشق، وما بلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بما وعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عياناً، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتصر الأولون مثلها في المثالات، ولا سبقت لها سابقة في العضلات، والحمد لله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولا نخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقد كانت لنا وفيها الموعظة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من إقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضاً: «وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

وللإسلام اليوم قدم إن زلت زل، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل،
وتلك القدم العادلة، وتلك الهمة الهمة المسايقة السيفية، فالله الله ثبتوا
ذلك الفؤاد، ودمثوا ذلك المهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد،
ولا تنظروا في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضرر، ولا أن من
الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر، انظروا إلى انكم الإسلام كله قد برز
إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله فان صححتكم تلك النسبة فإن الله
لأنسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر
فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعة وتنقضي، وليلة
وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتاب له آخر إلى الملك العادل: «أدام الله ذلك الاسم تاجا
على مفارق المنابر والطروس، وحياة للدنيا وما فيها من الأجساد
والنفوس، وعرف المملوك ماعرفه من الأمر الذي اقتضته المشاهدة،
وحرصت به العاقبة في بيروت، ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله:
ألم تــــران المرء تــــذوي يمينه
فيقطعها عمدا ليسلم سائرته

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا قد سبق إليه، ومن قلم من الأصبع
ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً، ودفع عنه ضراً:
وتجسم المكروه ليس بضائر
ما خلت به سبيل إلى المحمود

وآخر كل شقوه أول كل غزوه، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها،
وتجشم الكلف فهو إذا صرف وجهه إلى واحد، وهو وجه الله صرف الله
إليه الوجوه كلها (والذين جاهدوا قينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع
المحسنين) (١٤٢)

ومن كتاب آخر له: «هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس

- ٨٩٣٢ -

الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهوور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي مآكل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ماسودته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعلماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيچاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش إلى همدان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع الملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسروهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية، وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لا يقبر إلا بالبيت المقدس إذا استخلص، والآن ما كان غلامه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهو عن كل سنة وفرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلات بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الأمير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهل، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلة روم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ما أجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبين:

- ١٩٣٤ -

سلم الحصن ما عليك ملامه
ما يلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب
سنة سنهها بيروت سامه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، وبقي لسامة الولاية
الجبليّة، ثم توجه إلى مصر.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأول، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الأفضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأبجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان، ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسجق واللواء المنشور لطبي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ماتحرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدمه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين في شهر رمضان، وملك
ربضها ومدنها وولاياتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابر ولم يقل كيف
ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملكه مضافة إلى ملكه، وقد هناها بها
الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:
فإن تـك مصر أم ملكك فـمـارد
إذا نسب البلدان فحل الممالك
تقاعس عنها سنجروا بن عمه
وقصر عنها عزم زنكي الاتابكي
فإن تـك قد شوركـت في فتح غيرها
فمالك في أمثالها من مشارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبنى عمه عماد الدين، وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعة بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام، فقبل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يومين أو ثلاثة لا يستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه، وأظلمت بفجيئته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره، ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل: «أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظام بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ما قدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونصره، ثم السبيل إلى الجنة يسره واذا محاسن أوجهه بليت

فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فاعزز على المملوك وعلى الأولياء، بل على قلب مولانا، لاسلبه الله ثوب العز بسرعة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعه، ولباسه ثوب البلا قبل أن يبلى ثوب الشباب، وزفه إلى التراب وسريره محفوف باللذات والأتراب، وكانت مدة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرض القلب وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، وقد فجّع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد، والأسى في كل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هذا إلى العباد كتاب من الفاضل فيه: «وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر، وحاشى ذمة الوعد به أن تخفر، واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف، نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قال العباد: ولما توفي الملك العزيز خلف بنين صغار يزيدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحب أولاده، يشيم من شيمه مخيلة سداده، وقد اختص لديه، ونص عليه، فاجتمع الأمراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين إياز سرکس ومنهم أسد الدين سراسنقر وزين الدين قراجه، وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين، ونعتوه بالملك المنصور، وأخذوا له أيمان الجمهور، قال: وكانت الأسدية في الايام العزيزية الناصرية مغمورين، وبلاستيلاء عليهم مقهورين، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهرة، فقال لهم: نعم مارأيتموه من حفظ العزيز في ولده، لكنه صغير السن لا يحتمل ثقل هذا الفن، ولا بدّ من

كبير من أهل البيت يريه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماها هنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وماها هنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الأول تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقه، وسروا بقدمه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبوا إلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيده الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل إلينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولا تسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقبل لهم: إن الأفضل أدلج ليلاً، واستصحب نجبا وخيلاً فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدس وجد في طريقه نجاباً مسرعاً فاستحضره، واستكشف ورده وصدوره، فقال أنا نجاب فخرالدين أياز سرکس، ومعى كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب، وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سرکس له وأضاف وقدم وغرم أموالاً ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلوا إلى القدس وسكنوا به وعرف الناصرية جليلة الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، ففترقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعة، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر، ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاً باسم الولد في البلد وغير البلد.

قال: ولما استقر الأفضل بمصر حملوه على قصد دمشق، وحصرها، وقالوا له: اطلب بلدك الذي منه أخرجت، وعن المقام فيه أزعجت، ومالك في مصر مايكفيك، ودمشق لك بوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهداياه، وقال له: انتهاز الفرصة فعمنا عنا مشغول وإلى إن يتم من ماردین مراده، وينضم إلى بياضه سواده نخرج دمشق عن يده، ونعجله اليوم فيها عن غده، وأنا أصل إليك وأقدم عليك بالبنود والجنود والأساور والأسود، فما زالوا به حتى خرج بالعسكر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمراء الناصرية المفارقين، فاستحثه على مفارقة ماردین، وتواصل من الناصرية جماعة بعده، وعندهم من الإستحثاث ما عنده، فحركه القول وتجرد عن العسكر واستصحب معه الأميرين: عز الدين بن المقدم وبدر الدين دلدوم، وسرى ليلا لخمس بقين من رجب، وأوصى ولده الكامل أن يسير في مضايقة حصن ماردین بسيرته، ويقتدي بعزمته، ووصل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق، ودخلها جماعة منهم من باب السلامة بلغوا إلى السوق الكبير، وأعلنوا الفتح بالتكبير، ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير، فخرجوا من باب الفراديس وكروا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيه دهليز سرادقه، وأقدم برواعده وبوارقه، فأشار عليه أمراؤه بالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهم زله، فنزلوا عند ميدان الحصا ثم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلا ذلك الفضا بمضارب الخيم، ففترت الصدمة الأولى، وقصرت الصدعة الطويل، وخمد الجمر فصار رمادا، واستحالت تلك الأمواج المتلاطمة ثمادا، ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هناك، وتمت فوارط عدمت الاستدراك، وامتدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهذان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر، ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانهما، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبية، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الأشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل ما يدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سرکس ومن معه واصلون إلى دمشق، فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها إلى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوكلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يبكرون ويركبون، ويقربون من العسكر المصري ولا يرقبون، وحفر المحاصرون حولهم خندقاً عميقاً فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قال: وعلى الجملة فما ظهر منهم صنع إلا في قطع الماء ومنع الميرة، والمضايقة الكثيرة، واحراق البساتين، وتخريب الطواحين، حتى إذا انحسرت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التأخير والتقديم، فتسلط الرعية على الملك العادل وحملوه على التسليم والاستسلام، فتباينت آراء الملوك المحاصرين، بما دبره العادل سيف الدين، ولا بد للكبار من الاحتيال، إذا صمم الصغار على الاغتيال، وليس في ذلك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفذ إلى الظاهر في الباطن، وقال له: أنت السلطان وحكمك على جميع الأماكن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الأفضل: قلدي في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لا تخلو من أقسام جالبات لأسقام، أجلك أن تتولاها تولية النائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً مما أعرف لك فيه غرضاً، فما لك ما يصلح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظاهر، والله المطلع على الضمائر، وقيل أرسل العادل وقال: أسلم اليكم دمشق بعد سبعة أشهر، وتربص وتصبر، فخذوا يميني، وكلوني إلى ديني، وظن أنهم لا يوافقون وفي الحصر يضايقون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعوها في الاستضاءة بهذا القبس، عرف أنهم نادمون فيما عليه من الحصر قادمون، فعاد عن هذا البذل، وردّهم إلى سنن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملك معاملة المسر لا المجاهر، فخذ لنفسك وأبدل معي وحشتك بأنسك، ويكتب أيضاً إلى الظاهر إن الأفضل قد صالحني، وعلى الرضى صافحني، وإنك تحصل على المضاعفة، وستفني بك المباينة إلى المغابنة، وقيل إنه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكاتبوه، ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه، وخبرت تلك الملطفات في عجين، لتفرّق

- ٨٩٤٣ -

على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عشر على تلك
الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالآفات، وعدّوا من
المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قد هجم، وكل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق، وخرج من دمشق جماعة يظهرون أنهم من الناصحين، وترددوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فلا يقعد عن النهوض إلى القتال، والصواب أن نتأخر قليلا، فرحلوا إلى سفح جبل العقبة، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج إليه عادمون، وعلى مافط منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشرب، وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل، واضطربوا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشر السلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بأمنه، وأقام الكامل حتى توجه أبوه إلى مصر، فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما، وانتقل إلى حران والرها واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأول، وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مرج الصفر، وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصبحا بقية الأحمال الملك الأفضل إلى مصر، وودّعا وكلاهما سار جريدة إلى مقره، واستمر بعد ذلك على أمرار أمره، كلما رحل القوم عن منزل أحرقوا ما لم يظفروا له بمحمل، وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت أسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويخلفونهم في مناهلهم، وكان القوم ظنوا أنهم يقدرّون بمرج الصفر على الإقامة، فلقوا من البرد ما حضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموز لا يقيم به إلا لابس فروة فكيف في كانون،

وقد عرفوا أنهم الجانون حيث لم يلزموا القانون، وأرسلت الصلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه، ويحثونه ولا يهملونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأول، وودّع أعيان البلد وسار وتلا من تقدّمه إلى تل العجول، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الأفضل العدل النجيب أبا محمد، وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حاجاته، ويرسله في مهام الرسائل، وكان مدلول الرسالة: أرفق في السير، ووافق على الخير، فما عندك اليوم من يصدقك، وأنا لك كالوالد وأبلغك مقصودك، وأخالفك ولا أخالفك، وأوافقك ولا أفارقك، فأشار على الأفضل جماعته بأن يرد جواب الرسالة: إن مقاربتني لك بمباعدتك للصلاحية منوطة، وموافقتي بمخالفتهم مشروطة، فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا ونفروا، واستدلوا به على أنهم ظفروا، وجدّ جدّهم، واحتدّ حدّهم، فطروا المراحل إلى السائح، وكان الأفضل على بليس، وقد تفرّق معظم أصحابه إلى أخبازهم، وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه، وعلى الإبطاء عاتبوه، فسار الجمعان بعضهم إلى بعض، والتقوا فانكسر أصحاب الأفضل وانهزموا، فدخلوا القاهرة، وأغلقوا الأبواب للمحاصرة وانتهى إلى الأفضل أن جماعة منهم أرسلوا إلى العادل في إصلاح أحوالهم، وانجاح آمالهم، فقال سيف الدين يازكوج للأفضل: لكل زمان عمل، ولكل أوان أمل، فاصلح الأمر كيف تهيأ، فلا ملام على اللبيب بأي زي تزيّا، فشرع الأفضل في إصلاح الأمر مع عمه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثم سلم الأمر ومر سالماً، وحصل له من التجربة ما عاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركة، واستبدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظر للصلاحية في صلاح ضياعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على ما أعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرب، وانتظر يومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها، وإن لم تسدقني فتسلمها واعلم أنهم غرّوك وضرّوك، وساؤوك بها سرّوك، وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضل صدق عمه سلم المسألة، وسأل المعدله، فقرر للأفضل في ديار بكر: ميفارقين وأعمالها، وجبل جور وحاني وجملين، والمعقل والحصون المحسوبة من ميفارقين، فرضي بها مكرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتميز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسياده، وقوته في نموّ وزيادة.

قال: ورد القضاء الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ولم يزل قاضي القضاة بالديار المصرية، من الأيام الناصرية وكان نائبة القاضي زين الدين على بن يوسف الدمشقي، وتعصب الأمراء المتغلبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه، ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أوّل ما حمل عليه أن صدر الدين يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردّ صدر الدين إلى منصبه، وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاءه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينية، ومدارس الشافعية، وربط الصوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولايتها، وله في مناصبه نواب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفي الدين ابن شكر الظاهرة، ونزل في الدار السلطانية في الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه غضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمور أحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماه وحلب وغيرها، وهما سرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الأفضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها، ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ما تقبل على أحد ولا تمده بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرقوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال: وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعد به بعتاء جزيل، ووعد به بثناء جميل، وأقطع به بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لا يجد ما يجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعيّا ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنبيه فيها وكان بحران، وهو في تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أولها:
أنتم تحبون بالأعراض تعذيبني
وتقصدون بخلق الصلته تذيبني
ساروا فيا صحتي من مهجتي ارتجلي
غابوا فيا سستي عن مقلتي غيبي
قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب
الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة
نحمر طينه بالطهر والطيب
لا يدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلقى تأبيه في الشم الشناخيب (١٤٣)
دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسية في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاء والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها لينبي عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعة مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصاابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بما راعهم، وملاً بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطئ النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار بمنزه، وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه، فاختر الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، ثم مدّ السباط في الجامع، ثم ذكر العباد أنه مدحه ثم بكلمة أولها:

مغرم القلب مدنف
وجده ليس يوصف
وعدوننا واخلفوا
ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شرويه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشير ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهر.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفى الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخير عام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العادة، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاة، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والاناة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأننا أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة التي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فخرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجمل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.

فصل

في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنة أعني سنة ست وتسعين

قال العماد: وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، وإذا فتح بلد أسلمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أول من افتض عذرتة، وشام ديمته، وحصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة، وتصدق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا، وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته ديناً، وهو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب اقتناء الفاخر ببناء الربط والقناطر، ومن جملة رباط خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولما كفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل إلى مصر، فردّه إلى دمشق ليلزم خدمة الملك المعظم ولده، ويكون من أقوى عدده وأولى عدده، وكان في خلقه زعارة، وكانت حصافته مستعارة.

قال: ولما دفن نبشت أمواله، وفتشت رحاله، وحضر أمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزوايا، وسموط النقود، وخطوط النسايا، وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنائره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدار وبركة الحمام في الجوار، فحملوا أوقارا من النضار، وظهروا على الكنوز المخفية، والدفائن الألفية، فقليل زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جنب ما يحرزه من كذا وكذا قنطار. واستقل ما طواه الخزن، وأخفاه الدفن، وقليل كان يكتز في صحارى ضياعه، ومغارات اقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع، وتأذى بذلك المتأبي

منهم والطائع، وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستمائة، وأخرب الحمام الذي كان مجاوراً لها، وأدخله في ربيعها، وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق، وثم مدرسته المعروفة بالقيمازية.

قال العماد: وفي جمادى الآخرة من هذه السنة توفي —يعني بمصر— الحاجب لؤلؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان، وأفروس الفرسان وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العداة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر إيلة إلى الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرههم بالإعجال والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عذاب على التجار، وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الأسار، فأنقذ واستنقذ، ومانزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم مأسورين.

قلت: وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج:
عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه
والدر في البحر لا يخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم
فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة، تقدّم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سياحه ما شاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبراته الظاهرة أنه لما حط القحط رحله، ووصل المحل محله، وتم الغلا، وعم البلا، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيفا فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء، ثم يفتح الباب مقدار ما يخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد فيتناول كل منه قرصه، ويرى

ذلك من خيراته فرصه، فما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء، حتى هب رخاء الرخاء، فحيث تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلاة أوقاته، وكان بهي الشيب نقي الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصه مدة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بره، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال، والصالحين الصالحين الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة، وأنا بالديار المصرية، توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي، وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى، وكم واجه الملوك بالحق المر، وأنكر عليهم ما ينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها، فأعجبه سميت المذكور، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز فوليها، وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه، وخلت منازل العز من منازل عزه، وأصبح الناس حول سريريه مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القرافة، معان الرحمة والرأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجنازته بها فيه من لباس التقوى مغشاة، ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته مترين، وبنار اللهب والتلهب عليه مضطرمين، ونمى الخبر إلى حماه وعرف ابن تقي الدين، فولى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليته، وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتدى برشده إلى الضلالة.

قال: وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق.

قلت: وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى، ويعرف بابن العقاده.

قال: وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي، وكان أبرع فقيه وأفقه بارع، ورد إلى اصفهان سنة تسع وأربعين، ولقى بها العلماء المبرزين، وخالط صدورهم بني الخجندی، وكان تفيقه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرازي، من أكبر تلامذة محمد ابن يحيى، وتنقل في بلاد خراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنين وسبعين في العهد الصلاحي، وسامه السلطان المقام بها ليفوض إليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه، فعبر وماصبر، وعاد إلى البلاد، ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ماكان.

قال: وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيهما توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين قرا أرسلان.

وفيهما مات بدمشق في العشر الأوسط من شعبان الهمام العبدى، الشاعر البغدادي، وهو أبو الحسن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة وقدم دمشق سنة خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيت في هذا الزمان، وسمعت ينشد الملك العادل ودمشق محصورة كلمة شاعره، وصادفته ذا سمت حسن، وفصاحة ولسن، ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره، وتوفر على مدح الأجد صاحب بعلبك ومن شعره:

وما الناس الا كامل الحظ ناقص

وأخر منهم ناقص الحظ كامل

واني لثـرمـن حـيـاء وعـفـة
وإن لم يكن عندي من المال طائل

قال: وتوفي في هذه السنة قبل الفاضل بثلاثة أيام الأثير بن بنان، وكان مشمولاً في الدولتين بكل قبول واحترام واحسان، وكان السلطان لما تصرف في القصر ولاه بيع موجوده، وبذل في نصرته غاية مجهوده، ولما فرغ من شغله أبقاه على رسم انعامه كله، واستمر إمراره واستقر قراره، وجلس في بيته يسبح عليه رواياته العالية، حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العز أملاً، ولم يملك عملاً، حتى تغير خلقه، وتقلل رزقه، وتبطل حقه، وآل أمره إلى اعتقاله بالديون، واحتباسه في الرهون، ومن غاظه وزير العزيز، وكان مؤدبه في الصغر، واستوزره في الكبر فتجهمه، واسمعه ماكرهه، وقال له: ما أحسن ما أدبت مخدمك وخرجته، وعلى مراتب أخلاقك درجته، وقال للفاضل: أنا خلصتك في أيام شاور مرتين، ودافعت عنك دفعتين، وهذه قصائدك في مدحي، ومقاصدك لمنحي، وكان يعرف لتقادم عهده وانتقاله في الحالات، مبادي أرباب المناصب إلى الغايات، فكرهه النواب ودحضوه ولمعارض النواب عرضوه، وكان بالقاهرة جاري، وباب داره مقابل باب داري، وأنا أعينه في الأيام الصلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانة.

فصل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد : وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى وفجعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر، يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الأفضل يوم الكسره، وبمصاف الفاضل يوم الحسرة، وذكر أنه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرستها، وتحدث معه ماشاء وشوهد من كل ليلة أبش، وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضره وطالت المسامرة، وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسن، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام، وعرفني حين أقضي منى المنام، فوافاه سحراً للاعلام، فما اكثرت بصوت الغلام، ولم يدر أن كلم الحمام حمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت، فلبث يومه لا يسمع له إلا أنين خفي، علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً، ومضى شهيداً حميداً، فوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوه، وإن تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه، ولأنه لم يبق في مدة حياته عملاً صالحاً إلا وقدمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقداً في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان،

والسلطان رحمه الله من مفتحات فتوحه ومختوماتها، ومبادئ أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرايه وآرائه، ومقاليد غناه وعنايته، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى مناسب آلائه منسوباً، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي، ولم يزل يجذب بضبعي، ويجلب نفعي، وما أوسع درعه للخطاب في شغلي إذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي، وكانت كتابته كتائب النصر، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبرية، وعبارته نافذة في عقد السحر، وكانت بلاغته للدولة مجمل، وللمملكة مكمل، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضل، ومفتحاته في الفتوحات البديعة بذريعة، ومخترعته في الصنائع المخترعة صنيعة، وإنما نسجت على منواله، ومزجت من جرياله، ورويت بزلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأغربه من الابداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كمرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظاً في مخاطبته بل تأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدعة لا مفتكره، بالعرف والعرفان معرفة لانكره، وكانت الدولة بادالته تدال، والزلة بازالته تزال، والكرام في ظله يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون، وبعز حمى حمايته يعزّون، ولهم عطف عطفه يهتزون، فإلى من الوفاة بعده، ومن الافادة، وفيمن السيادة ولمن السعادة؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره منقادون .

وقد وصفه العماد أيضاً في كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر محاسن فضلاء مصر وأعمالها، فقال: وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزائنها، أقدم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأمائل العصر، كالقطرة في تيار بحره بل كالذرة في أنوار فجره، وهو المولى القاضي الأجل الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني، صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الزمان العظيم الشأن، رب القلم والبيان واللسن

واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة والفضل الذي ما سمع له بمماثل في الأوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبدكار ويقلع الانوار ، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، وربط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة ما لو دَوَّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته، فضله بالافضال حال، ونجم قبوله في أفق الاقبال عال، لا من في فعله ولا من في قوله، ولا خلف في وعده ولا بطء في رفده الصادق الشيم، السابق بالكرم، ذو الوفاء والمرّوة، والصفاء والفتوة والتقوى والصلاح، والندى والسباح، منشر رفات العلم وناشر راياته ، وجالي غيابات الفضل وتالي آياته، وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته، وأخلصوا لولايته قد وفقه الله للخير كله، وفضل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهمات المستغرقة في العاجلة لا يغفل عن الآجلة، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلاته ونوافل صلاته، وحفظ أوراده ووظائفه، وبث أصفاده وعوارفه، ويختتم كل يوم من القرآن المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد ، وأنا أؤثر أن أفرد لنظمه ونشره كتابا، فإنني أغار من ذكره مع الذين هم كالسها في فلك شمس وذكائه، وكالثرى عند ثريا علمه وذكائه فلإنما تبدو النجوم إذا لم تبرز الشمس حاجبها، وتحجب نور الغزاة عند إشراقها كواكبها، وإنه لا يؤثر أيضا إثبات ذلك، فأنا ممثّل لأمره المطاع ملتزم له قانون الاتباع، وأضع أذني لأذنه، قابض يميني على يمينه راكن بأملي إلى ركنه، قاطن برجائي في ظل أمنه، افترض رضاه ولا أعترض على ما يحكم به ويراه، ولا أقوم إلا حيث يقيمني ، ولا أسوم إلا ما يسومني ولا أعرف يد المكتنى غير يده ، ولا أتصدى إلا لما جعلني بصدده، وأسأل الله التوفيق للثبات على هذا

السنن وابتهاج جدده وهو أحق بمدوح بمدحي واقضاهم بحقه،
وأسماهم في أفقه، وأولاهم بصدقه، وأهداهم إلى طرقه، ولي فيه مدائح
منظومة ومنثورة، ومقاصد معاهدها معمورة، وقصائد قلائدها على مجده
موفوره.

ثم ذكر منها بعض ماتقدّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه
من قصيدة أولها:

بحياتكم ماعندكم بعدي
فسوى الأسى مابعدكم عندي
مالاجنة لاعدمتهم
رغبوا عن الاسعاد في الزهد
إن لم يفلحوا فليدروا كرماء
عبد الرحيم بذمة المجد
ذو الرتبة الشفاء والشرف الـ
عالي السنا والسؤدد العبد
الناس كلهم له تبع
وفي فضله والدهر كالعبد
كم غاص بحر بنانه فغدا
درّ البيان يساق في العقدة
ان سود البيضا يبيض من
ثوب الليالي كل مسود
قلم أقاليم البلاد به
وثغورها للضبط والسد
ملك كتيته كتابته
فرد بجيش النصر في جنـد
الأسمر الخطي تباعه
في حكمه والأبيض هندي
والنائبات بحده أبدا
مثلومة مغلولة الحد

ثم قال: ولو أوردت من كلامه طرفاً لظهر عجز الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلا يحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أؤثر أن أفرد به بقسم لا يمتزج بسواه، ولا يتبهرج به من في جملة أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك، فلا سبيل إليه إلا بإذنه، ولا نفاذ للتصرف إلا بعد الفكاك^(١٤٤) من رهنه.

قلت: وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، وقد تقدم لأبي الحسن بن الذروي فيه أبيات حسنة عامي حجه، وللتاج أبي الفتح البلطي فيه:

لله عـبـد رـحـيـم
 يـدـعـى بـعـبـد الـرحـيـم
 عـلـى صـرـاط سـوي
 مـن الـهـدى مـسـتـقيـم
 يـنـمـى إـلـى شـرف فـي
 ذـرى المـعـالي صـمـيـم
 مـهـذب حـاز مـاشـئـم
 مـن تـقـى و عـلـوم
 نـسـك ابـن مـرـيـم عـيـسـى
 و هـدى مـوسـى الكـليـم
 يـرى التـهـجـد انـسـا
 فـي جـنـح لـيـل بـهـيـم
 مـسـهـد الطـرف يـتـلـو
 آي القـرآن العـظـيـم

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة:
عبد الرحيم على البرية رحمة
أمنت بصحتها حلول عقابها

ياسائلا عنه وعن أسبابه
نال السوء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم أن فيصل خطبه
بخطي براعته وفصل خطابها
ولقد علت رتب الأجل على الورى
بسمو منصبها وطيب نصابها
وأنته خاطبة إليه وزارة
ولطالما أعييت على خطابها
مالقبوها لأن بعلمها
أسماءه أغتته عن القابها
قال الزمان لغيره إذ رامها
تربت يمينك لست من أترابها
أذهب طريقك لست من أرائها
وارجع وراءك لست من أربابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا
ذلت من الأيام شمس صعابها
وأنت سعادتته إلى أبوابه
لا كالذي يسعى إلى أبوابها
تعنوا الملوك لوجهه بوجوهها
لابل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يقول ونفسه
مشغولة بالذكر في محرابها
في الصوم والصلوات أتعب نفسه
وضمان راحتته على اتعابها
وتعجل الاقلاع عن لذاته
ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها
منه ودارس علمها وكتابها

صَوَّامَهَا قَوَّامَهَا عِلَامَهَا
عَمَّا لَهَا بَبْذَالَهَا وَهَمَّا لَهَا

وله أيضا من أخرى:
وسألت من أي المعادن ثغرها
فوجدت من عبد الرحيم المعدن
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه
فعلمت حقاً أن هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل
لا يدرك الساعي إليه سوى العنا
يدنو من الأفهام إلا أنه
تلقاه أبعد ما يكون إذا دنا

قلت: كان والده تولى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى
مصر، فاتصل بكتاب الدولة المصرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفتح
الله عليه في هذه الصناعة ففاق فيها أهل عصره، مضافاً إلى ما منحه الله
تعالى من علو قدره، وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأت
من نظمه:

وسيف عتيق للعلاء فإن تقل
رأيت أبا بكر فقل وعتيق
فزربابه فهو الطريق إلى الندى
ودع كل باب ما إليه طريق

وله أيضاً:
سبقتهم بأسداء الجميل تكرماً
وما مثلكم فيمن تحدّث أو حكى
وقد كان ظني أن أسابكم به
ولكن بكنت قبلي فهيج لي البكا
ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبي الذي
ذيله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن
السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل
إلى مصر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل.

قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنابة من باب آخر،
قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف
مجلد، وكان يجمعها من سائر البلاد. قال: وسمعت قاضي القضاة
ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدث أن
القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه
بالموت، خشية أن يستدعيه وزيره صفى الدين بن شكر إليه أو يجري في
حقه إهانة، وكان بينهما مقارصة فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة
مع الله تعالى، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب
ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم
أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي، قال:
ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعي رضى الله
عنه، وجاء إلى قبر الفاضل فزاره، قال ابن أبي الحجاج: وأنا حاضر ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

قال العماد: ففيها توفي الأمير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم في حصن أفاميه، وفيها أو في سنة ست قبلها توفي السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل أرسلان بن أتسز بن محمد، وهو الذي زالت دولة السلجوقية بملكه، واجتمع له مع خوارزم، خراسان، والعراق، ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه.

قال: وفيها كتب السلطان العادل للأمير فخر الدين إياز شركس بأعمال تبين، وهونين، وبانياس، والحوله، وما يجري معها، وكانت مع الأمير حسام الدين بشاره، فحاصره وأنجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق، فسلم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في محال مآثراته المحول، وله في الغزوات والفتوحات مواقف معروفة، ومقامات موصوفة، وهو الذي احتاط على القصر، حين استتبت على متولييه أسباب النصر، وذلك قبل موت العاضد بمدة، ولما خطب لبني العباس بالديار المصرية تسلم القصر بما فيه، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهره، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة، وكان معاذ الإلتجاء، وملاذ الإرتجاء، غير أنه نسب إلى اللجاج لشدة ثباته وفرط جموده، ولا يكاد يعجم لصلاية عوده، ولما توفي تسلم العادل داره بما حوته من الذخائر، وصارت اقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نقل إلى العادل عن غلام الأمير أيبك الفطيس أن جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه، وأسند أصل ذلك إلى الملكين

المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين رحمه الله، فأحضر الغلام وعصره فمات ولم يقر، واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اثمهم في ذلك من الأمراء الصلاحيه، وتكلم الناس بأحاديث في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وامتد البلاء وتحققت المجاعة وهلك القوي، فكيف الضعيف، ونهك السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرق فرق بمصر في الأمصار، ورأيت الآرامل على تلك الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم، فقل من إلى الشام خلص إلا بعد أن قل عدد أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشدة بعد مدة، وتوفي العباد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب: الفتح، والبرق، وهذه الرسائل الثلاث العتبي، والنحلة، والخطفة بدمشق في أول شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك الأفضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وحمل إلى حلب فدفن بها

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة

وستمائة، وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة، وأخواه
الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله ووفق من بقي
من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين.

آخر الجزء الثاني من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف.

والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. على يد العبد
الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف ، محمد بن أحمد البودري المغربي
الأزهري.

آخر الجزء الثاني من الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية
لأبي شامة رحمه الله.

حواشي الجزء الأول حسب تقسيم المؤلف

- ١—سورة الرعد—الآية: ٩.
- ٢—سورة ابراهيم—الآية: ٣١.
- ٣—سورة الطارق—الآية: ٩.
- ٤—سورة هود—الآية: ١٢٠.
- ٥—سورة القمر—الآيات: ٤-٥.
- ٦—رواه الإمام الترمذي في كتاب الشمائل
- ٧—انظره عن أبي داود في جامع الأصول لابن الأثير ج ٨ ص ١٩.
- ٨—صحيح مسلم - ط. دار الفكر بيروت ج ٢ ص ١٣٢ - باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح.
- ٩—انظره في جامع الأصول ج ١١ ص ٧٩٢.
- ١٠—سورة الحاقة—الآية: ٨.
- ١١—في حاشية الأصل: «قف، كان المؤلف اختصر تاريخ ابن عساكر».
- ١٢—سورة الذاريات—الآية: ٥٥.
- ١٣—في حاشية الأصل: ولد نور الدين سنة ٥١١ وتوفي سنة ٥٦٩، وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ وتوفي سنة ٥٨٩.
- ١٤—ديوان أبي تمام - ط. دار المعارف القاهرة ج ٣ ص ١٥٢.
- ١٥—في حاشية الأصل: قف على أن نور الدين كان حنفي المذهب.
- ١٦—في حاشية الأصل: قف على أن الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لخلو اليد عنها.
- ١٧—أي لا يذكرن بقبيح، كان يسان مجلسه عن رفث القول. النهاية لابن الأثير.
- ١٨—أي أوضحهم وعدا، القاموس.
- ١٩—سنا البرق الشامي للبنداري - القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦.
- ٢٠—في حاشية الأصل: حاشية، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهاني الحنفي، ولقبه شوروه - بشين معجمة مفتوحة، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين، وآخره هاء، والله أعلم. كذا في الأصل المنقول من خط مؤلفه.
- ٢١—ليست هذه الأبيات في المطبوع من تاريخ إربل.
- ٢٢—في الحاشية: قف على هذه المنقبة العظيمة.
- ٢٣—انظر تاريخ حلب لابن الشحنة - ط. طوكيو ١٩٩٠ ص ١٠٥.
- ٢٤—سورة الفرقان—الآية: ٦٣.
- ٢٥—سورة النور—الآية: ٥١.
- ٢٦—سورة الزمر—الآية: ١٠٠.
- ٢٧—سورة الأنعام—الآية: ١٦٠.
- ٢٨—سورة البقرة—الآية: ٢٦١.
- ٢٩—سورة ص—الآية: ٢٩.
- ٣٠—سورة الانفطار—الآية: ١٩.
- ٣١—سورة آل عمران—الآية: ١٩٥.

- ٣٢ — لم تصلنا ترجمة نور الدين في الأجزاء الموجودة من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم.
٣٣ — انظر الخريدة — قسم بلاد الشام - ج ١ ص ١٢٣.
٣٤ — تخمط : تكبر وغضب، القاموس.
٣٥ — دأيت للشيء: ختلته وراوغته. القاموس.
٣٦ — الشلق: الضرب بالسوط وغيره.
٣٧ — الجث — القطع، أو انتزاع الشجر من أصله، وبالضم: ما أشرف من الأرض حتى كأكمة صغيرة.
٣٨ — أجن الماء إذا تغير لونه وطعمه.
٣٩ — في هامش الأصل: حاشية - الجناجن - بجيمين ونونين - عظام الصدر.
٤٠ — في هامش الأصل: الشرر أحكام القتل وإبرامه، والسحل دونه، أي أمضى منه في الأمور الكبار وفي الصغار، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم.
٤١ — ليلة الهرير هي إحدى ليالي القادسية، وكذلك هي إحدى ليالي صفين.
٤٢ — من أمثال العرب يعني إبطان غير المظهر.
٤٣ — الأبرنز: الأمير.
٤٤ — وقم: قهر وأذل. القاموس.
٤٥ — الكرينة: المغنية، ولا أدري إذا كان الكرين: المغني.
٤٦ — تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهاني بتهذيب البنداري، - ط. القاهرة ١٩٠٠ ص ١٨٧ - ١٨٨.
٤٧ — القلة: أعلى مكان بالقلعة أو بالحصن.
٤٨ — قبر زنكي قرب مشهد الإمام علي رضي الله عنه، ومكان هذا المشهد حيث باب بغداد في الرقة، وعلى مقربة من هذا الباب جرت حفريات رجحت مكان القبر وحددته.
٤٩ — تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩ - ١٩٠.
٥٠ — خبز مصنع من طحين معجون بالسمن والسكر. أو خبز بلا آدم (بقسماط)
٥١ — صحيح مسلم — كتاب الحدود ٥ ص ١١٧.
٥٢ — بزرك: عظيم.
٥٣ — سورة التوبة — الآية: ١١١.
٥٤ — سورة الصافات — الآية: ٤٤.
٥٥ — مرت هذه الكلمة من قبل في تاريخ ابن القلانسي، ووقتها خيل لي أنها تصحيف «حظائر» ولكن التكرار بالرسم نفسه نفى هذا الاجتهاد، ولدى السؤال تبين لي أن فطائر جمع فطيرة، والفطيرة قطعة الأرض واضحة المعالم لا فرق إن كانت مزروعة أو بدون زراعة.
٥٦ — حبيب النجار، ومثواه كما هو رائج في أنطاكية.
٥٧ — ديوان أسامة ص ١٧٠.
٥٨ — سورة فاطر — الآية: ٤٣.
٥٩ — جفخ: فخر وتكبر.
٦٠ — سورة الأنعام — الآية: ٩٦.
٦١ — سرطته: بلعته.
٦٢ — الزبرج: الزينة

- ٦٢ — يفيل: يخطىء.
٦٤ — آخر صفوف الحرب.
٦٥ — سدك به لزمه وتولع به.
٦٦ — السرق الحرير، والشليل الثوب يلبس تحت الدرع.
٦٧ — الأرين: النشيط، وسرير الميت أو تابوته، والسياف، القاموس.
٦٨ — الأنب — ثمر الباذنجان، والغاصي: القليل المتفرق.
٦٩ — الكسم: الحشيش الكثير، والصوار: القطيع من البقر.
٧٠ — العرار: الصياح والصراخ.
٧١ — الخبر: مالان من الأرض.
٧٢ — العلاب — جمع علبة — وهي النخلة الطويلة والقذح الضخم يحلب فيها.
٧٣ — الشجن: الحزن والهم، وشجنته الحاجة: حبسته.
٧٤ — الضجم: عوج في الفم والشدق، وضغمه: عضه.
٧٥ — ديوان أسامة ص ١٦٢.
٧٦ — ديوان أسامة ص ٧٦.
٧٧ — ديوان أسامة ص ٢٩٠.
٧٨ — ديوان أسامة ص ٢٨٧.
٧٩ — ليست في ديوانه المطبوع.
٨٠ — ديوان أسامة ص ٣٠٦ — ٣٠٩.
٨١ — القنس: الأصل، أعلى الرأس.
٨٢ — ديوان أسامة ص ٤٠ — ٤١ (عدة أبيات).
٨٣ — كتاب العصا لأسامة — ط. القاهرة ١٩٧٢ ضمن نوادر المخطوطات ج ١ ص ٢٠٧.
٨٤ — جاءت قصيدة ابن رزيك في ديوان أسامة مع رد آخر غير هذا لأسامة ص ١٣٦ — ١٣٧.
٨٥ — ديوان أسامة ص ٢١٣ — ٢١٧.
٨٦ — ديوان أسامة ص ١٤٠ — ١٤١ مع فوارق.
٨٧ — بط الجرح شقه.
٨٨ — ديوان أسامة ص ١٧٥ — ١٧٧.
٨٩ — الخريدة — قسم مصر — ط. القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ١٧٣ — ١٨٣.
٩٠ — ليست في ديوانه المطبوع.
٩١ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٧٤.
٩٢ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٠.
٩٣ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٠.
٩٤ — ديوان أسامة — ص ٢٨١ — ٢٨٣.
٩٥ — سنا البرق الشامي ص ١٩.
٩٦ — ليسا في ديوانه المطبوع.
٩٧ — سورة الأعراف الآية ٩٥.
٩٨ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٩ — ٢٠٠.
٩٩ — الخريدة — قسم الشام — ج ٢ ص ٣٥.

- ١٠٠ — سنا البرق الشامي ص ٢٢ — ٢٤ .
١٠١ — انظر سورة آل عمران — الآية: ٢٦ .
١٠٢ — سورة آل عمران — الآية : ٢١٦ .
١٠٣ — سورة البقرة — الآية: ٢١٦ .
١٠٤ — سورة النساء — الآية: ٥٤ .
١٠٥ — سورة النحل — الآية: ٩١ .
١٠٦ — الخريدة - قسم الشام — ج ١ ص ٢٧٧ .
١٠٧ — سورة الأنفال — الآية : ٤٢ .
١٠٨ — سورة القصص — الآية: ٨٣ .
١٠٩ — سورة الرعد — الآية: ٤٣ .
١١٠ — ديوان عرقلة الكلبى - ط. بيروت: ١٩٩٢ ص ٥٧ .
١١١ — ديوان عرقلة الكلبى ص ١١٠ .
١١٢ — ديوان عرقلة ص ٤٩ .
١١٣ — ديوان عرقلة ص ٦٤ .
١١٤ — ديوان عرقلة ص ٥٢ . الخريدة - قسم الشام — ج ١ ص ١٨٠ .
١١٥ — سورة النحل — الآية : ٥٢ .
١١٦ — سورة النحل — الآية: ٢٦ .
١١٧ سورة الأنفال — الآية : ٤٢ .
١١٨ — الخريدة - قسم مصر - ج ١ ص ٢٣٥ — ٢٣٧ .
١١٩ — سورة آل عمران — الآية: ١٧٤ .
١٢٠ — كذا وهو وهم فقد عاشت الخلافة الفاطمية / ٢٧٠ / سنة هجرية من ٢٩٧ حتى ٥٦٧ (٩٠٩ - ١١٧١) ، وكان القائد جوهر الصقلبي قد استولى على مصر سنة ٣٥٨ / ٦٦٩ ، وبعد ذلك بوقت قصير انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة المؤسسة حديثاً .
١٢١ — ديوان العرقلة ص ٣٧ — ٣٨ .
١٢٢ — سورة الصف - الآية: ٨ . وحديث المصنف عن تاريخ الدولة الفاطمية ونسب أئمتها صادر عن التعصب ، ذلك أن مسألة النسب مبتوتة من حيث الصحة ، أصف الى هذا أن اسم المهدي عبد الله وليس عبيد الله وكنت قد عالجت هذه المسألة بالتفصيل بكتابي الجامع بأخبار القرامطة ، ج ١ ص ٧٧ — ١٠٧ .
١٢٣ — سورة الكهف — الآية: ١٠٤ . وكنت قد نشرت مادونه القاضي عبد الجبار في تثبيت دلائل النبوة في كتابي الجامع بأخبار القرامطة ج ١ ص ٢٩٥ - ٣٣٠ .
١٢٤ — سورة الأسراء - الآية: ٥٨ .
١٢٥ — زرا هي أزرع الحالية وسمسكين هي الشيخ مسكين الحالية وهما على مقربة من بعضهما .
١٢٦ — متح الماء: نزعها، والمقصود هنا رفع زكي إلى القلعة .
١٢٧ — الخريدة - قسم الشام ج ٣ ص ٦٤ - ٦٥ .
١٢٨ — طمام موضع على مقربة من صنعاء، وكان سوقاً مشهوراً. معجم المدن والقبائل اليمنية لابراهيم المقحفي - ط. صنعاء ١٩٨٥ .

- ٨٩٧١ -

- ١٢٩ — الخريدة — قسم الشام — ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ .
 ١٣٠ — سورة البروج — الآية : ٢٠ .
 ١٣١ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٨٦ — ١٨٧ .
 ١٣٢ — سورة الشورى — الآية : ٤١ .
 ١٣٣ — سورة البقرة — الآية : ١٩٤ .
 ١٣٤ — ديوان عرقله ص ٧٠ .
 ١٣٥ — منامات الوهراني ومقاماته ورسائله — ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤ .
 ١٣٦ — ديوان أسامة ص ١٥٨ .
 ١٣٧ — المعرفة والتاريخ للفسوي — ط. بيروت ١٩٨١ ج ٢ ص ٣٦٧ .
 ١٣٨ — ليست في ديوان أسامة المطبوع .
 ١٣٩ — سورة التوبة — الآية : ٥٨ .
 ١٤٠ — سورة الليل — الأيتان : ١٤ — ١٥ .
 ١٤١ — ليست في ديوانه المطبوع .
 ١٤٢ — سورة النبأ — الآية : ٢٠ .
 ١٤٣ — الأملق الخطيرة — قسم الشام ج ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٨ .
 ١٤٤ — سورة الرعد — الآية : ٢٨ .
 ١٤٥ — كذا وهو وهم قائم على تجاهل زمن كل من ابن أبي حصينة والمعري المتقدم على أسامة ، ولا وجود لطائفة أسامة في ترجمته في الخريدة .
 ١٤٦ — أي أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالامام علي كرم الله وجهه .
 ١٤٧ — الخريدة — قسم الشام — ج ١ ص ٤٠٦ — ٤١٩ .
 ١٤٨ — الخريدة — قسم الشام — ج ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .
 ١٤٩ — سورة الأنعام — الآية : ١٦٤ .
 ١٥٠ — الخريدة — قسم الشام — ج ٢ ص ٣٣٦ — ٣٣٩ .
 ١٥١ — الخريدة — قسم الشام — ج ١ ص ٤٩١ — ٤٩٥ .
 ١٥٢ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ١٠٦ .
 ١٥٣ — لاترجمه للعثماني في قسم مصر المطبوع من الخريدة .
 ١٥٤ — الخريدة — قسم الشام — ج ٢ ص ٣٦٤ . وللشاتاني ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم على أساسها يقوم نص الخريدة المنشور .
 ١٥٥ — ديوان العرقله ص ٦٥ .
 ١٥٦ — محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد. معجم البلدان .
 ١٥٧ — سورة فصلت — الآية : ٤٦ .
 ١٥٨ — هذا بعض بيت ورد في الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي — ط. بيروت — دار القلم ج ١ ص ٣٤١ والبيت هو :
 أبي القتل إلا آل صمة إنهم أبو غيره والقدر يجري إلى القدر .
 ١٥٩ — سورة النساء — الآية : ١٠٠ .

حواشي الجزء الثاني من الروضتين

- ١- الأمج: حر وعطش، والشديد الحر، القاموس.
- ٢- سورة آل عمران- الآية: ٣٤ .
- ٣- سورة الأنفال- الآية: ٦١ .
- ٤- سورة الأعراف- الآية: ٨٧ .
- ٥- ديوان سبط ابن التعاويذي- ط دار صادر بيروت ص ٤٢٠ - ٤٢٤
- ٦- سورة البقرة- الآية: ٢٤ .
- ٧- هذه القبور في المدرسة الشامية البرانية، التي باتت الآن في موقع متوسط داخل دمشق، وقد جرى ترميمها مؤخراً.
- ٨- انظر موسوعة أطراف الحديث ح ٧ ص ٤٤٤، ٤٤٧ .
- ٩- في هذا اشارة إلى قصة الزباء والانتقام منها حين جدع قصير أنفه، فقبل في الأمثال لأمر ماجدع قصير أنفه.
- ١٠- سورة آل عمران- الآية: ١٩٦ .
- ١١- سورة المجادلة- الآية: ٢٢ .
- ١٢- سورة آل عمران- الآية: ١٧٤ .
- ١٣- سورة الفجر- الآيتان: ١٣- ١٤ .
- ١٥- هو زيد بن الحسن زيد بن زيد، من شيوخ ابن العديم، ترجم له في كتاب بغية الطلب ج ٩ ص ٤٠٠٢- ٤٠١٣ .
- ١٦- سورة الواقعة- الآية: ٦٥ .
- ١٧- سورة الزمر- الآية: ٧١ .
- ١٨- لعلها زالة التي ذكرها الحميري في الروض المعطار وقال عنها: مدينة صغيرة عامرة بينها وبين أوجلة التي بأرض برقة عشرة مراحل.
- ١٩- سورة طه - الآية: ٣٧ .
- ٢٠- الخريدة- بداية قسم شعراء الشام ص ١٣٦ .
- ٢١- سورة التوبة- الآية: ٣٦ .
- ٢٢- السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. القاموس.
- ٢٣- سورة آل عمران- الآية: ٢٦
- ٢٤- سورة الأحزاب- الآية: ٢٧ .
- ٢٥- سمق سموقا: علا وطال. القاموس.
- ٢٦- سورة الروم- الآيتان: ١- ٢ .
- ٢٧- سورة مريم- الآية: ٢٦ .
- ٢٨- التيوغ: كل بقلة إذا قطعت سال منها لبن أبيض حار يقرح البدن. القاموس.
- ٢٩- سورة الرحمن- الآية: ١٣ .
- ٣٠- سورة التين- الآية: ١ .
- ٣١- انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ٣٠٦ .
- ٣٢- انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ١٤٦ .
- ٣٣- سورة الفجر - الآيتان: ٧- ٨ .
- ٣٤- موسوعة أطراف الحديث ج ٤ ص ٤٢٢ .
- ٣٥- سورة يوسف- الآية: ٨٤ .
- ٣٦- تدقق رواية العماد هذه على ماجاء لدى وليم الصوري وصاحب ذيل تاريخه.

- ٣٧— سورة الفتح — الآية: ٤ .
٣٨— سورة القدر — الآيتان: ٣—٤ .
٣٩— سورة آل عمران — الآية: ١٤٨ .
٤٠— سورة النبأ — الآية: ٤٠ .
٤١— سورة الروم — الآية: ٤٧ .
٤٢— سورة الفرقان — الآية: ٢٦ .
٤٣— سورة هود — الآية: ٤٣ .
٤٤— سورة فاطر — الآية: ٢ .
٤٥— سورة الأنبياء — الآية: ١٠٥ .
٤٦— سورة طه — الآية: ٣٧ .
٤٧— سورة الاسراء — الآية: ١ .
٤٨— سورة آل عمران — الآية: ٣٧ .
٤٩— سورة التوبة — الآية: ١١١ .
٥٠— سورة الشورى — الآية: ١٣ .
٥١— سورة النور — الآية: ٥٥ .
٥٢— سورة المائدة — الآية: ٢١ .
٥٣— الفتح من العقبان اللينة الجناح، القاموس .
٥٤— سورة النحل — الآية: ٩٠ .
٥٥— سورة الأنعام — الآية: ٤٥ .
٥٦— سورة الفاتحة — الآيتان: ١—٢ .
٥٧— سورة الأنعام — الآية: ١ .
٥٨— سورة الاسراء — الآية: ١١١ .
٥٩— سورة الكهف — الآية: ١ .
٦٠— سورة النمل — الآية: ٦٠ .
٦١— سورة سبأ — الآية: ١ .
٦٢— سورة فاطر — الآية: ١ .
٦٣— سورة النجم — الآيات: ١٤—١٧ .
٦٤— انظر الآية ٣٦ من سورة النور .
٦٥— سورة النساء — الآية: ١٧٢ .
٦٦— سورة المائدة — الآية: ١٧ .
٦٧— سورة الأنفال — الآية: ١٠ .
٦٨— سورة النحل — الآية: ٩٢ .
٦٩— سورة الأعراف — الآية: ١٧٥ .
٧٠— سورة الأنفال — الآية: ٦٥ .
٧١— سورة آل عمران — الآية: ١٦٠ .
٧٢— سورة الأحقاف — الآية: ١٥ .
٧٣— سورة النمل — الآية: ١٩ .
٧٤— سورة هود — الآية: ٣٨ .
٧٥— سورة آل عمران — الآية: ١٧٥ .
٧٦— سورة الدخان — الآيات: ٢٥—٢٨ .
٧٧— سورة الفرقان — الآية: ٣٨ .
٧٨— سورة غافر — الآية: ٨٥ .
٧٩— سورة فاطر — الآية: ٣٤ .
٨٠— سورة الزمر — الآية: ٧٤ .
٨١— سورة الأعراف — الآية: ٤٣ .

- ٨٢ — سورة يونس — الآية: ١٠ .
 ٨٣ — سورة إبراهيم — الآية: ٣٤ .
 ٨٤ — سورة مريم — الآية: ٨٤ .
 ٨٥ — سورة الواقعة — الآيتان: ٢٥ — ٢٦ .
 ٨٦ — سورة الحجر — الآية: ٤٦ .
 ٨٧ — سورة الطلاق — الآية: ٧ .
 ٨٨ — ليست في ديوانه المطبوع .
 ٨٩ — سورة التوبة — الآية: ١١١ .
 ٩٠ — سورة التوبة — الآية: ٢٦ .
 ٩١ — سورة الأنفال — الآية: ١٧ .
 ٩٢ — سورة آل عمران — الآية: ٣٤ .
 ٩٣ — سورة الفرقان — الآية: ٢٦ .
 ٩٤ — سورة الحاقة — الآية: ٧ .
 ٩٥ — سورة يوسف — الآية: ٧٧ .
 ٩٦ — الأسفل نبات، والرماح والنبل وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر. القاموس .
 ٩٧ — الخريشت بالفارسية: الخيمة — الايوان. نوع من أنواع الدروع .
 ٩٨ — قلعتان عظيمتان من أعمال إربل. معجم البلدان .
 ٩٩ — سورة النساء — الآية: ١٠٠ .
 ١٠٠ — سورة طه — الآية: ١٣٢ .
 ١٠١ — سورة الحج — الآية: ٤٠ .
 ١٠٢ — سورة محمد — الآية: ٣٥ .
 ١٠٣ — سورة الأحزاب — الآية: ٢١ .
 ١٠٤ — سورة آل عمران — الآية: ١٥٩ .
 ١٠٥ — سورة التوبة — الآية: ٤٦ .
 ١٠٦ — سورة القمر — الآية: ٨ .
 ١٠٧ — سورة الأنبياء — الآية: ٩٦ .
 ١٠٨ — ديوان حاتم الطائي — ط دار صادر بيروت ص ٥١ مع نواريخ .
 ١٠٩ — سورة هود — الآية: ٤٣ .
 ١١٠ — سورة الأنعام — الآية: ٦٤ .
 ١١١ — سورة آل عمران — الآية: ١١٣ .
 ١١٢ — سورة الأنعام — الآية: ٤٣ .
 ١١٣ — سورة الأنعام — الآية: ٣٥ .
 ١١٤ — سورة آل عمران — الآية: ٣٠ .
 ١١٥ — سورة الإنسان — الآية: ٣٠ .
 ١١٦ — سورة الأنعام — الآية: ٩١ .
 ١١٧ — سورة النمل — الآية: ٧٣ .
 ١١٨ — سورة الحشر — الآية: ١٠ .
 ١١٩ — سورة المزمل — الآية: ٦ .
 ١٢٠ — سورة آل عمران — الآية: ١٣ .
 ١٢١ — سورة المائدة — الآية: ٦٤ .
 ١٢٢ — سورة الحج — الآية: ٤٠ .
 ١٢٣ — سورة يوسف — الآية: ٤١ .
 ١٢٤ — سورة آل عمران — الآية: ١٦ .
 ١٢٥ — سورة آل عمران — الآية: ١٠٣ .
 ١٢٦ — يروى أن هذا قاله عبد الله بن الزبير أثناء معركة الجمل، فقد اصطرع هو والاشتر النخعي — مالك بن

- الحارث، فنادى بهذا النداء.
- ١٢٧— الخريدة— قسم الشام، ج ٢ ص ٣٣٤—٣٣٥ .
- ١٢٨— سورة العاديات— الأيتان: ٩—١٠ .
- ١٢٩— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٤ .
- ١٣٠— سورة الرحمن— الآية: ٦٠ .
- ١٣١— سورة التوبة— الآية: ٤٠ .
- ١٣٢— المدرسة التي أسسها وجملت اسمه، حيث باتت من أهم مراكز التعليم في بلاد الشام.
- ١٣٣— شعر دعبل بن علي الخزاعي— ط دمشق ١٩٦٤ ص ٧١ .
- ١٣٤— سورة الحشر— الآية: ٢٢ .
- ١٣٥— سورة التوبة— الآية: ١٢٩ .
- ١٣٦— موسوعة أطراف الحديث ج ٥ ص ٤٠ .
- ١٣٧— لعل في هذا إشارة إلى عدم تصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر وفاة النبي ﷺ عندما سمعة للمرة الأولى فقال: «إن رسول الله ﷺ لم يمّت، ولكن ربه أرسل إليه» .
- انظر مغازي الزهري— تحقيقي— ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٣٢ .
- ١٣٨— سورة القلم— الآية: ٤ .
- ١٣٩— سورة التوبة— الآية: ١٢٠ .
- ١٤٠— سورة يس— الآية: ٧٨ .
- ١٤١— سورة البقرة— الآية: ١٩ .
- ١٤٢— سورة العنكبوت— الآية: ٦٩ .
- ١٤٣— الشنخوب: أعلى الجبل. القاموس.
- ١٤٤— الخريدة— قسم مصر— ج ١ ص ٣٥—٥٤ .

المحتوى

ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين اولاده	٣-
باقي حوادث هذه السنة	١١-
فصل حول قمص طرابلس	١٨-
سنة ٥٨٣ - معركة حطين	٢٠-
حطين من رواية ابن شداد	٣٣-
فتح عكا وغيرها	٤٧-
فتح طرابلس وجملة من البلاد الساحلية	٥٢-
فتح تبنين وصيدا وبירות وجبيل ومجبيء المريكيس الى صور	٥٨-
فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها	٦٢-
فتح البيت المقدس	٦٦-
رواية ثانية عن فتح القدس	٦٩-
نزول السلطان على بيت المقدس	٧٣-
يوم الفتح وبعض كتب البشائر	٧٨-
كتب عن فتح القدس	٨٦-
قصائد في فتح القدس	٩٢-
اقامة الجمعة بالأقصى	١٠٩-
رواية العماد في البرق	١١٣-
خطبة جمعة التحرير	١١٥-
منبر الأقصى	١٢١-
أحوال الصخرة المقدسة	١٢٥-
اخلاء الفرنج للقدس	١٢٨-
قصائد قدسيات	١٣١-
حصار صور وفتح هونين	١٤١-
ورود رسل التهاني من الآفاق والعتاب من العراق	١٤٥-
باقي حوادث سنة ٥٨٣	١٥٢-
سنة ٥٨٤	١٥٥-
أمر عكا وكوكب	١٥٩-
دخول السلطان الساحل وفتوحاته	١٦١-
فتح انطربوس	١٦٣-
فتح جبلة	١٦٥-
فتح اللاذقية	١٦٧-
فتح صهيون وغيرها	١٧١-
فتح بكاس والشجر والسرمانية	١٧٤-

- ٨٩٧٧ -

فتح حصن برزية	١٧٧-
فتح حصن دريساك	١٨٢-
فتح بغراس	١٨٤-
عقد الهدنة مع صاحب انطاكية	١٨٦-
فتح الكرك	١٨٩-
فتح صفد	١٩١-
فتح كوكب	١٩٤-
باقي حوادث هذه السنة	١٩٩-
سنة ٥٨٥	٢٠٣-
فتح شقيف أرنون	٢٠٥-
تجمع الفرنج لغزو عكا	٢٠٨-
نزول الفرنج على عكا	٢١٢-
المصاف الأعظم على عكا	٢١٨-
باقي حوادث السنة بمرج عكا	٢٢٨-
ورود خبر ملك الالمان	٢٣٤-
سنة ٥٨٦	٢٣٨-
قدوم الملوك وحريق الابراج	٢٤٠-
ما كان من أمر ملك الالمان	٢٤٦-
الوقعة العادلة على عكا	٢٥٤-
من أخبار ملك الالمان	٢٥٨-
ادخال البطس الى عكا	٢٦٢-
وصول ابن ملك الالمان	٢٦٥-
احراق ماحوصر به برج الذبان	٢٦٨-
حوادث آخر متفرقات	٢٧٢-
رسالة من القاضي الفاضل من مصر الى السلطان	٢٧٧-
مراسلة ملك المغرب	٢٨٨-
نسخة الكتاب الى ملك المغرب	٢٩٢-
نتائج المراسلة	٢٩٨-
موقف القاضي الفاضل بشأن مراسلة ملك المغرب	٣٠٤-
خروج الفرنج الى رأس الماء	٣١٢-
ادخال البديل الى عكا	٣١٦-
باقي حوادث هذه السنة	٣٢٠-
سنة ٥٨٧	٣٢٤-
سقوط عكا	٣٢٩-
ما جرى بعد انفصال امر عكا	٣٤٥-
ما جرى بعد خراب عسقلان	٣٥٢-
باقي حوادث هذه السنة	٣٥٨-

- ٨٩٧٨ -

سنة ٥٨٨	-٣٦٢
عزم الفرنج على قصد القدس	-٣٦٧
مفاوضات الصلح	-٣٧٢
ماجرى بعد الهدنة	-٣٨٤
مسير السلطان من القدس الى دمشق	-٣٩١
أمور أخرى جرت	-٣٩٧
سنة ٥٨٩	-٤٠٥
مرض السلطان ووفاته	-٤٠٧
تركة السلطان ووصف اخلاقه	-٤٢٠
تاريخ مولد السلطان	-٤٢٤
مواظبته على القواعد الشرعية	-٤٢٤
انقسام مملكته بين اولاده واخوته	-٤٤٠
وفاة صاحب الموصل	-٤٤٦
رسالة العماد - العتبي والعتبي	-٤٥٠
رسالة العماد نحلة الرحلة	-٤٥٩
رياح وبروق وعواصف في مصر	-٤٦٠
رسالة العماد - خطفة البارقي وعطفه الشارق	-٤٦٤
سنة ٥٩٤	-٤٦٦
سنة ٥٩٥	-٤٦٨
سنة ٥٩٦	-٤٧٥
انابة الكامل بن العادل في مصر	-٤٧٩
وفاة جماعة من الأعيان	-٤٨٣
وفاة القاضي الفاضل	-٤٨٨
سنة ٥٩٧	-٤٩٦
الحواشي	-٤٩٩